الباب الأول

فهم الإسلام

تمهيد : الإنسان والناس والإنسانية

الفصل الأول : أحوال المسلمين المعنوية

الفصل الثاني : مفهوم الإسلام والإيمان في الحياة الإنسانية العلمية والعملية

الفصل الثالث : مفهوم الكفر في اللغة العربية والقرآن الكريم

الفصل الرابع : نصوص الإسلام السياسية

تمهيد:

الإنسان والناس والإنسانية

يعيش اليوم على الكرة الأرضية ما يزيد عن ستة آلاف مليون إنسان ولدوا من ذرية أب واحد هو آدم عليه السلام، ومنذ ذلك اليوم الذي عاش فيه آدم حياته مع زوجته حواء وحتى يومنا هذا توزعت ذريتهما على آلاف التجمعات الأسرية والقبلية والسلالية واللسانية واللغوية واللونية والاجتماعية والسياسية والدولية والأحلاف الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية التاريخية والمعاصرة، وفي شتى بقاع الأرض والقارات والبحار واليابسة.

وإذ نجد اليوم أنفسنا من ذرية تلك الأسرة الأولى الكريمة، نستشعر لزوم أن نكون في كل الكرة الأرضية أسرة واحدة متحابة متعاونة على المنافع والخير والكرامة، ودون أن نجد أنفسنا متنازعين على الأرض، ولا متنازعين على المنافع والأشياء، ولا متنازعين في معارفنا وعلومنا وعقائدنا وشرائعنا وقوانيننا وأنظمتنا، ولا مختلفين في عبادتنا للخالق سبحانه وتعالى، ولا متحاربين على كل ذلك، ولا يقتل بعضنا بعضاً بحجة أن كل واحد أو تجمع منا يملك المبدأ الصحيح ويدعو إلى الحرية، أو أنه أمين على حقوق الإنسان وحريته وسعادته، فإذا كان ذلك واقع فعلاً بين الناس، فعلى الناس جميعاً أن يسعوا إلى معالجته، لأن الناس يملكون وسائل التفاهم والتعاون بينهم.

إن الخطوة الأولى التي نطالب بها بصفتنا إخوةً من ذرية أسرة واحدة، أن نتفاهم على فهم أنفسنا بصفتنا البشرية، أن نفهم ما هو الإنسان؟ وبماذا يختلف عن غيره من المخلوقات الأخرى؟ وكيف يمكنه أن يصنع تجمعاً بشرياً من الناس؟ وما دور الأرض والأشياء التي على الأرض وفي باطن الأرض في صنع السلام والصراع بين الناس؟ وأولى الناس بتقديم هذه الأجوبة: الإنسان الحر في جسمه وقراءته.

الحرية الجسمية: أن لا يكون الإنسان عبداً لإنسان أو أناس آخرين.

والحرية في القراءة: أن لا يكون الإنسان عبداً لفكر أو ثقافة ما، أي أن يكون حراً في فهم نفسه بالصفة الإنسانية والمعرفية والعلمية والإيمانية والعقدية والثقافية، إن هذه القراءة الإنسانية الحرة ـ وهي في الواقع قراءات إنسانية حرة ـ هي القراءة الأولى التي ينطلق منها الإنسان والناس لتحقيق أنفسهم كائنات بشرية مكرمة، معيار صوابها أن تهدي إلى الحق علمياً وإلى الصراط المستقيم عملياً، بما يثبت الحق ويحقق الصلاح بين الناس.

كان آدم عليه السلام أول من تلقى من ربه الهدى والعلم الحق والصراط المستقيم، وتبعه أنبياء ورسل آخرون دعوا إلى الهدى والدين الحق وإلى الصراط المستقيم، الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكان آخرهم وخاتمهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، أنزل الله تبارك وتعالى عليه القرآن الكريم وفي أول سورة منه دعاء يقرأ في كل صلاة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [سورة الفاتحة].

يوم أنزل القرآن الكريم كان خطابه إلى الإنسان وإلى الناس جميعاً، فنادى القرآن الإنسان فقال: يا أيها الإنسان، إقراراً منه بقيمة الإنسان الفرد، ونادى الناس فقال: يا أيها الناس، إقراراً منه بالقيمة الإنسانية للناس كافة، فاهتدى به قسم من الناس سماهم القرآن بالمسلمين، فالمسلم إنسان وثق صلته بالله تعالى بعقد يقوم على الرضا والقبول بالله رباً وخالقاً ومالكاً وإلهاً هادياً.

إن هذا يعني أن الإسلام ليس دين طائفة واحدة من الناس، وليس دين قومية واحدة من القوميات العالمية، ولا دين بلد واحد من البلدان أو الدول، وإنما هو دين الناس جميعاً، أتم الله الرحمن الرحيم به نعمته على الناس كافة، ورضيه لهم ديناً قيماً، يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين بأن لهم عند ربهم أجراً حسناً، وثواباً عظيماً.

فيا أيها الناس:

أحبوا الله لأنه الواحد الأحد الخالق الرازق العليم الخبير، منزل العلم والألواح والصحف والكتب على الأنبياء والرسل، ومن آخرها التوراة والإنجيل، وخاتمها القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وأحبوا القرآن لأنه كلام الله تبارك

وتعالى، والذكر المبين والكتاب المنير، الذي لا عوج فيه قيماً، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأحبوا الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لأنه المبلغ عن الله تعالى آخر رسالاته قرآناً وبياناً، وأحبوا رسل الله تعالى جميعاً وآمنوا بما أنزل عل الأنبياء والرسل جميعاً ولا تفرقوا بين أحد منهم، وكونوا مسلمين كما كانوا، يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

فأحبوا الإسلام لأنه الاسم الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى للدين الأول والأخير، واسماً للعقد بين الله تعالى والناس بالرضا والقبول والسلام، واسماً اختاره أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما قال الله تعالى في سورة الحج الثربية: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَ.. ﴿٧٨﴾﴾.

لقد أرسل الله تبارك وتعالى الأنبياء والرسل من قبل وجعل محمداً بن عبد الله عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء وآخر المرسلين، وقد أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ويقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وقد مر على رسالة الإسلام الأخيرة أربعة عشر قرنا ونيف من الزمان، دخل الناس بعدها في الإسلام أو الإجرام بإرادتهم، وتمسكوا بالعلم أو الجهل بفعلهم، واتبعوا الهداية أو الضلال باختيارهم، وحكموا بالعدل أو الطغيان بقضائهم، وأوقدوا نار الحروب الظالمة بفسادهم.

والناس اليوم معنيون بما وصلوا له من علوم ووسائل اتصال وخطاب سريع بوضع دستور للحياة يقنع عقول أهل الأرض، ويطمئنون له وبه على أنه دستور الهداية

للناس جميعاً، لا يخص أمة دون أخرى أو قوماً دون آخرين، دستوراً يعنى ببني آدم وذريته إلى يوم الدين، لا يفرق بين أحد منهم والناس أمامه سواء، لا يفرق بين أبيض وأسود، ولا بين أحمر وأصفر، فتعالوا يا أيها الناس إلى كلمة سواء بينكم.

المسلمون في العالم اليوم في آخر الأمم اعتباراً، بسبب ظلمهم لأنفسهم، وبسبب مكر أعداء الإسلام لهم، وأحد أنواع ظلمهم لأنفسهم أنهم غلبوا التقليد على الاجتهاد، وقدموا المذاهب التاريخية وأصحابها على اتباع الدليل الصحيح كما بينه الكتاب والسنة، أي لأنهم اليوم يفهمون الإسلام كما قدمه التاريخ لهم لا كما ينبغي أن يجتهدوا هم في تفسيره، فيعادي من يجهل القرآن نفسه وغيره، ويعادي من لا يفهم الإسلام نفسه وغيره، والسؤال المحير: كيف يقع ذلك والقرآن كتاب هداية للناس وخير لهم مما بين أيديهم من دونه؟ سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، فلماذا لا يجتهد الناس في فهم الإسلام فهماً حياً، يسعد الناس والمؤمنين به كافة؟

من المؤسف أن قسماً من دول العالم اليوم تحارب الإسلام والمسلمين وتسيء إلى نبي الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام[1]، بسبب حمل كل طرف منهما فهماً تاريخياً عن الإسلام، أنتجه أناس متخاصمون متحاربون، إما أنتجه مسلمون سابقون كانوا قد دخلوا في حروب تاريخية قديمة أو حديثة مع الآخرين، وورث الأبناء عقول الآباء من كلا الطرفين، فاستمر العداء والكره عبر الأجيال إلى اليوم، وكأن هذه الحروب والصدامات حتمية لا خروج عنها، أو أن كل طرف منهما لا يطلب من الآخر إلا الانتقام.

إن المسلمين اليوم بحاجة إلى فهم للقرآن وفهم للإسلام يعبدون الله به عبادة علمية وعبادة عملية، يفهمون به أنفسهم وغيرهم من الأصدقاء والأعداء، فإذا لم يتمكن المسلمون اليوم من تقديم ذلك الفهم الجديد للقرآن بسبب ثقل الإرث التاريخي وصعوبة

---

(1) انظر: البيان الختامي لمؤتمر القمة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، الدورة الاستثنائية الثالثة للمؤتمر الإسلامي، الذي عقد في مكة المكرمة بين 5 ـ 6 ذي القعدة 1426هـ، الموافق 7 ـ 8/ كانون الأول ديسمبر 2005م، وانظر: بلاغ مكة المكرمة الصادر عن نفس المؤتمر.

التحرر منه، فمن حق غير المسلمين أن يفهموا القرآن الكريم والإسلام ليكون دينهم الجديد، وأن يفهموا الإسلام بفهم حي يعبدون الله به علمياً وعملياً، فردياً وجماعياً.

وإن من النصيحة أو التوصية أو الاقتراح الذي نتوجه به إلى غير المسلمين أن يحاولوا دراسة القرآن وفهم الإسلام، لمعرفة ما هو القرآن وما هي سنة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وتقديم فهم للإسلام يعالج كل جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وأن لا يركنوا إلى العرب أو إلى المسلمين بالوراثة أن يقدموا هذا الفهم وحدهم، فقد يكونون أكثر قدرة ونشاطا وفاعلية على جعله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فعلاً وواقعاً.

ولا يصرفن غير المسلمين عن القرآن والإسلام ما وقع في التاريخ من حروب وصراعات، وما ولدوا عليه من عداء أو كره للقرآن والإسلام ورسوله، عسى أن يجدوا الهداية والخلاص في هذا الكتاب الكريم، وفي هذا الدين القويم الذي ارتضاه الله ليس للعرب فقط وإنما لكل من يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعمل صالحاً، كما قال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

إن أمر الفكر الإسلامي سواء في قوته أو في ضعفه لا يشغل المسلمين وحدهم، بل الأصل فيه أن يهم كل الناس على الأرض وبالأخص منهم أهل الكتاب لأن القرآن كلام الله تعالى المنزل بعد التوراة والإنجيل، وقد ناداهم مراراً أن يؤمنوا به فقال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وناداهم في سورة آل عمران المدنية فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، كل ذلك لأن القرآن الكريم مرحلة تابعة وخاتمة لما نزل في الكتب السابقة، فصار من الواجب على الناس كافة وأهل الكتاب بخاصة أن يتفهموا

الإسلام بالفهم العلمي الحق الذي يؤدي إلى العقائد الصحيحة علمياً والأعمال الصالحة فعلياً وللناس كافة.

فيا أيها الناس القراء: أقبلوا على فهم القرآن ودراسته وتدبره قبل الإيمان به وبعد الإيمان به، أقبلوا على قراءة القرآن وفهمه إن كنتم بشراً.

ويا أيها الناس القراء: أقبلوا على فهم القرآن سواء كنتم أمريكيين أم أوروبيين أم صينيين أم يابانيين أم أستراليين أم إفريقيين أم آسيويين أم شماليين أم جنوبيين أم شرقيين أم غربيين.

يا أهل الكتاب: أقبلوا على قراءة القرآن الكريم وفهم الإسلام، من أي طائفة من أهل الكتاب كنتم، سواء كنتم هوداً أم يهوداً، مسيحيين أم نصارى، صابئين أم من غيرهم.

يا بني إسرائيل: أقبلوا على قراءة القرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد النبي الأمي فهو مصدق لما معكم، وآمنوا به، ولا يجرمنكم عداؤكم للفلسطينيين أو للعرب أو للمسلمين أو عداؤهم لكم على أن لا تعدلوا، فتعادوا كلام الله تعالى المنزل في القرآن الكريم بغير حق، فهو كلام الله ربكم ورب آبائكم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وكلهم آمنوا بما أنزل الله عليهم وعلى الأنبياء والرسل جميعاً، وقد أخذ الله ميثاق النبيين بذلك فقال تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فإذا كان هذا الميثاق ملزماً للأنبياء فهو ملزم لأتباعهم من المؤمنين إن كانوا صادقين، فكيف لا يتبع مؤمن من أمر نبيه باتِّباعِهِ.

ويا علماء العرب: اقرؤوا القرآن بأنفسكم ولا تجعلوا كتب التراث مرجعكم الوحيد، واستنبطوا منه نظريات الوجود والكون والمعرفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والحياة والسعادة، ولا يصرفنكم عن فهمه استئثار طائفة من المتدينين بلباس رجال الدين أو شيوخه أو دعاته، فالأمل أن تأتي الاجتهادات الجديدة والصحيحة منكم قبل غيركم، لأنكم أقرب

من يصدق فيهم قول الله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

ويا فلاسفة الشرق والغرب اقرؤوا القرآن بلسانه العربي ولو استوجب عليكم تعلم اللغة العربية، فما فيه من علم وخير يستحق منكم تعلم لسانه، وإلا فاقرؤوه بلغاتكم، ولا يجرمنكم كره العرب والمسلمين أن لا تقرؤوا القرآن فهو ليس كتابهم بل كتاب الله تعالى، وما العرب والمسلمون إلا أمة آمنت به من قبل، ولهم فضل السبق في تصديقه، فإذا آمنتم بالقرآن وفهمتموه خيراً منهم فقد تكونون أحق به منهم، بل وتهدونهم به إلى الصراط المستقيم.

ويا أبناء المنظمات والأحزاب والحركات والمذاهب والعقائد والطرق الوطنية والقومية والدينية والإنسانية، أقبلوا على قراءة القرآن وفهم الإسلام بأنفسكم وليس من خلال نفر قليل ممن وصفوا أنفسهم بالذكاء والعبقرية والإلهام والإمامة والرئاسة، أو الحبرية أو القداسة، فقد تأتون بخير مما أتى به هؤلاء وأولئك.

أيها الناس: أنتم اليوم في قرية واحدة وطرق الاتصال بينكم سهلة ميسورة فتعرفوا على بعضكم بعضاً واهدوا بعضكم بعضاً إلى الحق والى الصراط المستقيم حتى يصل سكان القرية إلى دستور واحد لحياتهم بعلم صادق وعمل صالح وسلام وأمانٍ، فتعالوا إلى فهم علمي مشترك للقرآن الكريم وسنة نبيه العظيم، حتى تجعلوا من الإسلام دستوراً لحياة قريتنا الواحدة، لأن الإسلام دستور الحياة حقاً، والقراء من بني آدم هم من يجعلونَه بحرية وعلم صادق وعمل صالح سبيل السعادة والنجاة في الدنيا وما بعد الحياة الدنيا.

الفصل الأول:

أحوال المسلمين المعنوية

من الأمور المجمع عليها بين قادة المسلمين والعلماء والمفكرين أنهم يعانون من ضعف داخلي وتخلف عن العالم الآخر المتقدم صناعياً وتكنولوجياً وعسكرياً، وأنهم اليوم يعيشون مرارة الهزيمة وشقاوة العيش ويعانون من الأمراض الحقيقية والمعنوية أكثر من غيرهم في هذه الدنيا[1]، وإنْ قيل: إن ذلك كله كائن بنسب متفاوتة بينهم، فيقال أيضاً إن القلة الغائبة عن المعاناة أو التي لا تشعر بها لا تخرق الإجماع، لأن كل دول العالم تشهد أن الدول العربية والإسلامية هي من دول العالم الثالث أو من الدول المتخلفة صناعياً أو الفقيرة اقتصادياً في الغالب، ولكنها وبالرغم من ضعفها عالمياً، فإنها غنية في دينها وقيمها وأفكارها، وآمنة من الخوف أو الانهيار، وغير قابلة للحروب الأهلية بينها.

ولمعالجة هذه الأوضاع والأزمات الداخلية، تقدم عدد من العلماء والباحثين بتحديد طبيعة هذه الأزمات التي تعاني منها البلاد العربية والإسلامية، وقاموا بتشخيصٍ وتمحيص وتحليل هذه الأزمات وتقديم الحلول والأفكار التي تعالجها، فكان منها النظريات الوطنية والقومية والإسلامية، التي نجحت في معالجة بعضها، ولكنها كانت كلما قطعت شوطاً في العلاج وجدت نفسها أمام مشكلات أخرى أكثر تجدداً وألماً وإلحاحاً، مما جعل جهود العرب والمسلمين في هذا العصر تركض وراء المشكلات المتجددة أكثر من ركضها وقدرتها على معالجة المشكلات التراثية أو الحاضرة[2].

وللأسف فإن بعض محاولات النهضة العربية في بدايات القرن العشرين الماضي حاولت إقصاء الإسلام من الحضور الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي

---

(1) انظر: بلاغ «مكة المكرمة» الصادر عن مؤتمر القمة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، مصدر سابق.

(2) للمزيد انظر: دور التراث في بناء الحاضر وإبصار المستقبل، عمران سميح نزال، نشر جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، مركز الدراسات والبحوث، وزارة الأوقاف القطرية، الدوحة، الطبعة الأولى، شوال 1427هـ ـ تشرين أول 2006م، ص 49، 81.

والسياسي، وحصره في شعائر كهنوتية فردية فقط، وهم بذلك كانوا يقلدون الحضارة الأوروبية الغربية في إقصاء الدين عن الدولة، إثر ما وقع في أوروبا من مظالم نسبت إلى رجال قصور مستبدة ومتحالفة مع رجال دين كنسي مستبد أيضاً، فكان المخرج الوحيد أمام الشعوب الأوروبية هو فصل الدين الكنسي عن الدولة، وتوعية الناس بحقوقهم الشخصية والاجتماعية والسياسية والسعي لتحقيقها، فيما عرف عندهم والمترجم ظلماً إلى العربية «بالعلمانية»، وهي الحركة التي تمكنت بعد صراع مرير من تقرير مستقبل تلك الشعوب.

لقد انتصرت «العلمانية» في الغرب لأنها جاءت حركة تحرر ضد مظالم تنسب إلى الدين، والدين الحق منها بريء، وفي المقابل دعت إلى العلم الذي ينفع الإنسان في الدنيا فقط، فأعطت الإنسان حقه في تقرير مصيره بحرية، ومكنته من صناعة مجتمعه السياسي بإرادة معرفية وفاعلية عقلية ظاهرية، وأهملت تفسير ما بعد الحياة، أو جعلته شأناً فردياً خاصاً، فأفقد تلك الشعوب السعادة الروحية الجماعية، وجعلها غير مكترثة في جعل حقيقة الحياة هي الأصل، وهو أن الوجود كله مخلوق لخالق عليم حكيم، له وحده حق العبادة الصادقة والطاعة المطلقة، وعلى الناس بمجموعهم وليس بأفرادهم فقط طاعة الأنبياء والرسل والشهداء، وعبادة الله تعالى العبادة العلمية والعملية معاً[1].

ولكن فئات من المسلمين من العرب وغيرهم، وإزاء ما حصل في العالم الإسلامي من تخلف في القرون المتأخرة، سعت إلى تقليد الغرب في علمانيته وحداثته، محاولة تطبيق قيمه الغربية على غير واقعها الأوروبي، فظنت أنها بتقليد الشكل الأوروبي يمكن أن يأتي بالمضمون والنتائج الأوروبية ونسيت أصولها وثوابتها وحضارتها، فقامت الصدامات المادية والفكرية بين تيار المحافظين من المسلمين وتيار التغريب، وظهر التيار المحافظ وكأنه رافض للعلمانية بإطلاق، وهو في الحقيقة رافض للعلمانية الغربية التي لا تناسب العالم العربي والإسلامي، أي رافض للنموذج الغربي من العلمانية، وحجته أنه لم يوجد في

(1) للمزيد حول مفهوم العبادة العلمية انظر: المدخل العلمي والمعرفي لفهم القرآن الكريم، عمران سميح نزال، دار قتيبة، دمشق، دار القراء، الأردن، الطبعة الأولى، 1424هـ- 2003م، ص 17.

العالم الإسلامي مؤسسة دينية مثل الكنيسة التي كانت تحارب العلم والحداثة [1]، وتتحالف مع الأنظمة السياسية المستبدة، بدليل أن القرآن الكريم موجود بين أيدي الناس والمسلمين كافة، وليس بين أيدي العلماء ـ رجال الدين ـ فقط، مثل الكتاب المقدس في أوروبا في ذلك الوقت، ولذا كانت حجة التغريبيين ضعيفة وباءت كل محاولاتهم بالفشل، وبقي الدعم الفكري والاجتماعي في العالم العربي للإسلام، ومن يمثله من المحافظين من العلماء والأمراء والدول التي تمسكت بالإسلام طريق حياة طيبة في الدنيا والآخرة.

ولكن بعض مواقف المحافظين الإسلاميين كانت متشددة جداً في محاربة شعارات الإصلاح والتغيير والتجديد، مثل محاربتها لشعارات العقلانية والتنوير والحداثة وغيرها، وكان الأولى أن تكون محاربتهم للخصوصية الفكرية والمضامين المعنوية الغربية التي لا تناسب الثقافة العربية والإسلامية، وأن تكون دعوتهم إلى الاجتهاد والفقه الإسلامي الجديد، وتأكيد حقهم في القراءة الحضارية معرفياً وعلمياً وسياسياً، هذه التمويهات أوجدت حالة من الصراع بين الأفكار المحافظة نفسها، بين غلو وتطرف وعنف من بعضها، وبين مداهنة وتفريط وتمييع للهوية الإسلامية، فبدت الساحة الفكرية العربية والإسلامية في حالة تنافر وصدامات ثقافية منها ما تطور إلى أعمال مادية بعد النصف الثاني من القرن العشرين الماضي، وكان يمكن تجاوز هذه الصدامات لو تحلت بشرعية الاختلاف بين الاجتهادات العربية والإسلامية والتسامح بين الاتجاهات الفكرية المتعددة.

هذه المواقف الداخلية استغلت من قبل بعض الدول الكبرى الطامعة في بلاد المسلمين في إحداث الانقسامات بينهم، وخلق حالة من عدم الاستقرار السياسي في البلاد العربية والإسلامية، حتى تكون مبررة للتدخل الخارجي الثقافي والسياسي والعسكري، وفرض مشاريع الإصلاح الخارجي، وهو ما بررته تلك الدول بقولها: (نحن قادة مجموعة

---

(1) انظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، محمد أركون، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1999م، ص25.

الثمانية ندرك أن السلام والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والرخاء والاستقرار في دول الشرق الأوسط الكبير تشكل تحدياً لنا وللمجتمع الدولي كله. ومن ثم نعلن دعمنا لإصلاحات ديمقراطية واجتماعية واقتصادية نابعة من هذه المنطقة)[1].

إن مما يتفق عليه العقلاء هو أن المشاكل والأزمات في العالم العربي والإسلامي لم توجد فجأة، وكذلك الحلول والمعالجات لا ولن توجد فجأة أيضاً، ولا بالطريقة الانقلابية، وحيث إن الشعوب الإسلامية تؤمن بالإسلام تصديقاً معرفياً وعقلياً وعلمياً، فإنها تؤمن بنفس الدرجة أن في الإسلام حل مشاكلها، ولذا لا ولن يبحث علماؤها العقلاء عن حل لمشكلاتهم وأزماتهم من خارج الإسلام، فهو الدين الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لعباده كما بينه في سورة المائدة المدنية: ﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴿٣﴾﴾، والإسلام هو القرآن الكريم وبيانه النبوي الثابت في السنة النبوية، وما صنف ويصنف بعد ذلك في الثقافة الإسلامية هو اجتهادات علمية من أولي أمر المسلمين، سواء كانوا من الأمراء أو من العلماء، وسواء وجدت اجتهاداتهم في كتب رسمية للخلفاء أو في كتب التراث الإسلامي أو في كتب الفقه المعاصرة، فإن هذه الاجتهادات تصيب وتخطى وتتطور مع الزمن، بينما القرآن الكريم حق مبين من رب العالمين، وبيانه النبوي هدي عظيم من خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين، أي إنَّ الإسلام نفسه ليس مسؤولاً عن الأخطاء التي يرتكبها أتباعه، سواء وقع الخطأ في التاريخ أو في الحاضر أو في المستقبل، فهم مجتهدون في فهم الإسلام وليسوا مقررين لحقيقة الإسلام.

ولذا من المهم التأكيد على أن القرآن الكريم ليس كتاب المسلمين وحدهم، بل هو كتاب الله تعالى إلى الناس كافة، وما المسلمون إلا أمة من الناس آمنت به، وأن القرآن الكريم ليس كتاب العرب وحدهم، وإن نزل بلسانهم وعلى أرضهم وإن آمن به كل العرب، وأن القرآن الكريم ليس كتاب محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وما محمد

---

(1) انظر: مقررات مؤتمر الدول الثمانية، نيويورك، حزيران 2004م، وصحيفة الرأي الأردنية، العدد (12316)، الخميس، 12 ربيع الثاني 1425هـ ـ 10/ 6/ 2004م، ص 20 و 8.

إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أرسله الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن الكريم ليبلغه إلى الناس كافة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وأحسن البيان، ولما كان الإسلام هو القرآن وبيانه النبوي معاً لم يكن من الممكن للعرب ولا لغيرهم منع أحد عن الإسلام أو جعله رسالة قومية أو ديناً عنصرياً.

لقد كان أول فعل أمر به القرآن الكريم هو القراءة المعرفية الإنسانية، ولذا فإن أول عمل قام به النبي عليه الصلاة والسلام قبل غيره هو القراءة، لأن هذا الأمر كان في اللقاء الأول بين النبي عليه الصلاة والسلام وجبريل عليه السلام، بقول الله تعالى في سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ وما ذلك إلا لأن فعل القراءة المدخل المعرفي والعقلي والعلمي لدخول الإسلام دخولاً صحيحاً وإرادياً ومقنعاً من كل إنسان، بغض النظر عن جنسه أو قومه أو نوعه أو لونه أو لسانه، ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً.

لقد وصف القرآن الكريم فعل الإنسان المقبل بوجهه على الله تعالى بالإسلام، وسمَّى من قام بهذا الفعل من البشر بالإنسان المسلم، ووصف فعل القراءة من المسلم إذا تعلق بفهم كلام الله تعالى وتصديقه به بالإيمان، وسمَّى المسلم القارئ المصدق بما جاء به الإسلام بالمؤمن، ووصف جماعة الناس الذين أسلموا وقرؤوا القرآن الكريم والسنة النبوية، قراءة جماعية في العلم والعمل، وهم في وجود جماعي بشري بالمؤمنين وسماهم الذين آمنوا، وناداهم بهذا الاسم الجماعي فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾، لأنه نداء للجماعة التي يشكلونها والكيان الذي يجمعهم أمة واحدة من دون الناس.

فإذا كان المسلمون يؤمنون بالأخوة الإنسانية من أبيهم آدم عليه السلام مع الناس جميعاً، ويؤمنون بأخوة الأنبياء ووحدة رسالتهم إلى الناس وأنها كانت رسالة الإسلام، بمعنى العقد مع الله رباً وخالقاً ومالكاً وهادياً، فإن ما يتوجب عليهم اليوم فعله أن يتقدموا من الناس جميعاً برسالة واضحة، تعرف الناس كافة ما هو الإسلام، وما هي عقائده وأركانه وأحكامه، وكيف يؤسس مجتمعاً نظيفاً ومدينة فاضلة وحكومة راشدة، جاعلين أنفسهم أفراداً من المجتمع الإنساني أولاً، يشتركون معهم في كل الصفات

البشرية والإنسانية، وأهم هذه الصفات صفة الخِلقة المادية وهي البنية الجسدية الواحدة، وصفة الوظيفة المعرفية المعنوية الخُلقية وهي القراءة، وبعد التأكيد على الصفة الإنسانية المشتركة، عليهم أن يحافظوا على هويتهم العربية والإسلامية، وأن يحافظوا على الإسلام على أنه دين الوسطية، وأن المؤمنين به أمة الوسطية والاعتدال، وأنهم يرفضون تنامي الكراهية للإسلام والمسلمين من أي مصدر كان.

المسلم الحقيقي، هو الإنسان الذي أسلم وجهه بنفسه لله تبارك وتعالى، والمجتمع المسلم هو المجتمع الذي يتشكل من مجموعة من السكان كله أو جله من المسلمين، الذين أسلموا وجوههم بأنفسهم لله تعالى، أي المسلمون بإرادتهم وليس وراثة، وذلك لعلمهم أن هذا الوجود الكوني المحكم لا يكون من غير رب خالق ومالك حكيم وإله رحيم، وهم آمنوا بالقرآن كلاماً لله تعالى لأنه بينة ثابتة الصدق بنفسها ومن أرسل بها، فهم حريصون على إنسانيتهم وأخوتهم البشرية مع بني آدم، وهم يتقدمون في هذا العصر من الإنسانية ناصحين هادين إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

إن ما يواجه المسلمين اليوم من صعاب في العيش وحروب يساقون إليها كرهاً، وأزمات يعترف بها كل مفكر عربي وإسلامي، وكل مؤتمر أو منتدى فكري أو ثقافي أو اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، حتى مؤتمرات القمة العربية والإسلامية تكرر الاعتراف بهذه المشكلات والأزمات، هذه الأزمات لا تعكس الحاضر وحده بل المستقبل كذلك، ومستقبل الإنسانية بشكل عام، وهذا يعني أن هناك عدة أسباب تشوه الصورة التي يوجد فيها الإسلام والمسلمون في العالم اليوم ومنها:

1ـ عداء بعض الموتورين ممن يعادي العرب والمسلمين بغير حق.

2ـ الصورة المشوهة التي يعطيها بعض المسلمين عن دينهم، إما بصورة عداء موروث لمسلمين آخرين عن الماضي، وهي في صراع مذهبي أو حزبي، ولذلك تكثر الدعوة اليوم إلى الإصلاح الداخلي، والحوار بين المذاهب الإسلامية والتخلي عن نهج التكفير.

3ـ الفرقة والتجزئة التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي، وعدم قدرته على بلوغ مرحلة الاتحاد والتضامن، وكثرة الأقوال التي لا يستطيع المسلمون أن يجعلوا منها

أفعالاً حكيمة ولا قويمة ولا نافعة، وكثرة ردود الأفعال المعنوية والمادية، التي لا تخدم المصالح العربية والإسلامية بصورة صحيحة.

إن القرآن كتاب هداية للناس جميعاً فيه العلم الحق والصراط المستقيم، ولكنه لن يكون في الواقع كذلك حتى ينجح في تحقيق ذلك لمن يؤمن به من المسلمين والمؤمنين، فمعيار صدقه أمام الناس والشعوب غير المسلمة هو مدى تحقيقه للسعادة لمن آمن به، ولن يتحقق ذلك حتى يفهمه المسلمون فهماً يثبت به أنه العلم الحق، وحتى يتحقق منه عملياً أنه منهاج حياة صالحة تسعد الإنسان في حياته المادية كما تسعده في الحياة المعنوية والروحية.

فأولى الناس بتقديم فهم مستقيم للإسلام علمياً وعملياً هم أفراد المسلمين القراء الذين يقرؤون القرآن بحرية علمية وعندهم فهم مسبق وصحيح عن الإنسان ونظريته المعرفية الإنسانية، وعندهم بحكم إسلامهم وإيمانهم بما في القرآن الكريم من علم، عندهم رؤى واضحة ونظريات متكاملة عن الطريق الصحيح والصراط المستقيم في كيفية حياة الإنسان الفرد وهو مسلم ومؤمن على الصفة الفردية: كما قال تعالى في سورة طه المكية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾، وقوله تعالى من سورة لقمان المكية: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله تعالى في سورة غافر المكية: ﴿مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾، وقوله تعالى من سورة النحل المكية المدنية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

وفي كيفية حياة المؤمنين في حياة جماعية: أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما في قوله تعالى من سورة النساء المدنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا

كُفَّارًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾، وقوله تعالى من سورة محمد المدنية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

ولما كانت القراءة وظيفة بشرية كان من الممكن أن يكتشف الإنسان أركانها في نفسه ويقسم أنواعها ويضبط مكوناتها لتفعيل القراءة في العصر الحالي وإزالة العقبات التي تعترض القراءة والتفكير على أساس بشري وإنساني أولاً ثم على أساس قرآني ثانياً، والترتيب بين القراءتين موضوعي لأن خطاب القرآن الكريم توجه إلى الإنسان العاقل.

وأما فهم الإسلام فلا بد أن يكون على أساس التفكير العلمي الصحيح، والتفكير العلمي الصحيح ليس وصفاً قيمياً فقط، وإنما هو منهج واضح الميدان والأركان والمعيار، وذلك بفهم الإسلام فهما علمياً حراً، وليس مشروعاً للعودة بالفكر الإسلامي إلى فهم سابق للإسلام فقط، كما أنه ليس دعوة لاستئناف الحياة الإسلامية التراثية، لأنه مشروع الأحياء من الناس الذين يقرؤون القرآن ويفهمون الإسلام بأنفسهم، فإسلامهم يعني إسلام وجوههم لله تعالى، وإيمانهم يعني تصديقهم بأنفسهم بما نزل في القرآن الكريم من العلم الصادق، وعبادتهم هي عبادة حقيقية في العلم والعمل، لأنهم يريدون أن يعبدوا الله عبادة علمية أولاً، ثم عبادة عملية ثانياً، في الحياة الفردية الخاصة والحياة الجماعية، والترتيب هنا ترتيب درجة وليس مستوى.

لذا فإن المدخل الصحيح في التعامل مع الإسلام وفهم أركانه ومحاوره الأساسية ومنها الجهاد هو المدخل المعرفي الذي يقدم النظريات المعرفية المطلوبة إنسانياً ودينياً، أما إنسانياً فبالوصف الصادق للإنسان الحي المشاهد أنا وأنتم، وأما دينياً فمن خلال بيان دعوة القرآن الكريم الإنسان والناس إلى التفكير والعقل والنظر حتى يسلموا ويؤمنوا، ثم دعوتهم بعد ذلك إلى العلم والاستنباط والنفرة الطائفية ليتفقهوا في الدين، وكل ذلك على أساس لسان القرآن وهو لسان عربي مبين، حتى يعقله الناس بدليل قوله تعالى في سورة الزخرف المكية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾، وقوله تعالى في

سورة يوسف المكية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾، فالنظرية المعرفية القرآنية تميز بين قراءتين وهما:

القراءة الدنيوية: وهي فهم سنن الأنفس والكون والتاريخ والقصص السابق.

والقراءة الدينية: وهي في معرفة العلوم التعبدية الفردية والجماعية، واجتهاد أولي الأمر بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأولئك هم المفلحون.

وأما المدخل الثاني في التعامل مع الإسلام وفهم أركانه ومحاوره الأساسية فهو المدخل العلمي وذلك بفهم الكلمة القرآنية على أنها مصطلح قرآني[1]، وذلك بفهم معاني كلمات القرآن والإسلام والإيمان والشرع والمنهج والعقل والفقه والعلم والاستنباط، وكلمات الجهاد والقتال والحرب والغزو والتدافع وغيرها، واتباع منهج القرآن في فهم القرآن وهو علم تاريخ نزول آيات وسور القرآن الكريم[2].

ولعل من المهم التفريق بين النبوة والرسالة والتفريق بينهما في الوظيفة، وأن هذه الوظيفة وظيفة شرعية من الله تعالى، وذلك لمعرفة إن كان يحق للمسلم أو المؤمن أن يتلبس وظائف النبوة والرسالة بحجة الإقتداء أم لا؟ وكذلك لمعرفة كيف يثبت البيان النبوي في حياته ﷺ؟ وكيف يثبت بعد وفاته؟ وطرق إثبات ذلك علمياً وعملياً، وكذلك معرفة الأسباب الشرعية التي أدت إلى تعدد اجتهادات علماء المسلمين والمؤمنين؟ وما هي أسباب نشوء مدارس عقدية إسلامية ومذاهب فقهية كثيرة في التاريخ الإسلامي؟.

ومن أسس التعامل مع الإسلام معرفة الفارق بين خلافة آدم عليه السلام وخلافة داود عليه السلام؟ خلافة آدم هي التي أخبرنا الله تعالى عنها في سورة البقرة المدنية بقوله

---

(1) انظر: المدخل العلمي والمعرفي لفهم القرآن الكريم، عمران سميح نزال، دار القراء، الأردن، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ ـ 2003م، ص81.

(2) انظر: علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، الدكتور أحمد شكري، وعمران سميح نزال، ص 153.

تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وخلافة داود هي التي أخبرنا عنها الله تعالى بقوله في سورة ص المكية: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

والتساؤل لماذا تمسكت الحركات لإسلامية بخلافة داود والتركيز على خلافة الحكم بين الناس؟ وأهملوا الاهتمام بخلافة آدم، الخلافة الأصلية للإنسان على الأرض، وقبل خلافة داود التي هي جزء من الأولى، الخلافة الأولى هي خلافة الإنسان على الأرض أي الخلافة الآدمية الإنسانية والتي هي أصل للخلافة الداودية، الخلافة الآدمية تعني حرية الاختيار وحرية التكليف ومسؤوليته، وأن الإنسان صاحب إرادة حرة في العلم والعمل، وأن تخوف الملائكة كان منصباً على الإفساد في الأرض وسفك الدماء، أي متخوفة من أشنع الأفعال التي يمكن أن يرتكبها الإنسان إذا كان خليفة أي مخلوقاً حراً.

إن الخلافة الآدمية تقدم عناصر بناء النظرية المعرفية الجماعية التي تقوم على أن الإنسان بفطرته مسلم، وباتباعه للرسل مؤمن، أي مسلم مصدق بالعلم الحق ومطمئن به، وأنَّ التقاء المؤمنين هو التقاء علماء، يديرون شؤونهم بالشورى العلمية والعملية لأن أمرهم في القرآن الكريم شورى بينهم، وأن قرارهم هو قرار مجلس الشورى عندهم، وهو نفسه سبيل المؤمنين الذي يجب اتباعه وطاعته والعمل به سواء كان إجماعاً كاملاً أم إجماع أغلبية عددية أو نوعية، وأن ذلك لا يتم تحقيقه إلا بتمثيل الأقل نوعاً عن الكثير عدداً لقوله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

إن نظرية الصراط المستقيم في القرآن هي الولاية السياسية الكاملة وغير المجزأة، كما كانت الخلافة الراشدة بعد عصر النبوة، فهي الخلافة الكاملة باجتماع

الخلافة الآدمية الإنسانية والخلافة الداودية الدينية معاً، فإذا كان سعي المسلمين إلى ذلك واضحاً وبيناً، فإن الفرصة اليوم سانحة أمامهم لتجديد الحكومة الراشدة، بتجديد الخلافة الإنسانية ثم تجديد الخلافة الداودية، حتى توجد العبادة الحقيقية من المسلمين وهم أفراد أولاً ثم وهم في عبادة جماعية ثانياً، وأن يكون السعي إلى تقديم فهم حقيقي للإسلام، يتجاوب مع تحديات العصر، وتقديم تفسير حي للقرآن الكريم والسنة النبوية على أسس النظريات المعرفية الفردية أولاً، ثم النظريات المعرفية الجماعية ثانياً، وتقديم اجتهادات إسلامية في النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ووضع الجهاد الإسلامي في موضعه الصحيح في منظومة الاجتهاد الإسلامي كله.

أي إنَّ المطلوب اليوم قراءة جديدة، صفاتها الأساسية أنها علمية وحرة، والمقصود بالحرية هنا عدم الانغلاق على اجتهاد فكري أو مذهبي واحد على التعيين، القراءة العلمية تتعامل مع الإسلام بنفسها ولنفسها، تضع شباب المسلمين في عصرهم الحقيقي وليس كأبناء للتاريخ الماضي فقط، ولكنها ملزمة باحترام الاجتهادات والمذاهب الموروثة، لأن من يتمسك بها يتمسك بعقائد إسلامية ومذاهب فقهية شرعية، ومن يسعى ليحافظ عليها أو على نوع منها، إنما هو عابد لله تبارك وتعالى بالعلم الذي تعلمه وإن لم يستنبطه، سواء بتقليد العلماء المشهورين أو الفقهاء المعتبرين، فلا يطلب من المسلمين الخروج من القراءة المذهبية في العقيدة والفقه، ولا رفض التقليد قبل تحقيق شروط القراءة العلمية الحرة عندهم، فإذا صح هذا الوصف فإن المسلمين اليوم يتمحورون حول توجهين كبيرين:

الأول ـ **التوجه التعليمي المحافظ**: يؤمن بالله ورسوله وكتابه وهو القرآن الكريم، بقراءة مذهبية، وهو بمجموع عقائده ومدارسه الفقهية كلها محل احترام وتقدير لأنها مدارس إسلامية اجتهادية.

الثاني ـ **التوجه العلمي الحر**: يؤمن بالله ورسوله وكتابه القرآن الكريم، بقراءة علمية قبل أن تكون حرة، فهؤلاء يقرؤون القرآن والإسلام قراءة علمية لتكوين عبادتهم

العلمية قبل أن تصبح عبادة عملية، ولذلك فأصحاب القراءة العلمية الحرة ليسوا أعداء لأصحاب التوجه التعليمي المحافظ لأنهم وإياهم يؤمنون بالله والرسول والقرآن، وجوامع الاتفاق بينهم أكثر من جزئيات الاختلاف، ومواجهة المشكلات المعاصرة وإيجاد الحلول لها ليست متوقفة على بقاء أحد المذاهب أو الاجتهادات الإسلامية واندثار الأخرى، وإنما بالاحترام والتسامح والتشاور والتعاون بينهم، طالما اجتمعوا على كتاب الله رب العالمين وسنة رسوله الكريم.

الفصل الثاني:

مفهوم الإسلام والإيمان في الحياة الإنسانية العلمية والعملية

المبحث الأول: مفهوم الإسلام معرفياً

ماذا يعني فهم الإسلام؟ وهل فهم الإسلام من السهل الممتنع؟ فالأصل أن يكون فهم الإسلام سهلاً ميسوراً لكل الناس، ولكن قد يبدو ممتنعاً إذا أردنا تحديده وتجديده في زمن تتوالى فيه الفتن مثل قطع الليل المظلم، يصبح فيه الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، في زمن الماسك فيه على دينه كالماسك على الجمر، في زمن بات الإسلام فيه غريباً فطوبى للغرباء.

فإذا قلنا سنبدأ بالتعريف اللغوي لكلمة الإسلام ثم بالتعريف الاصطلاحي، فإننا سنجد أن التعريف الاصطلاحي الذي جاء به القرآن الكريم أسبق من التعريف اللغوي الذي وضعه علماء اللغة بعد نزول القرآن بعدة قرون.

ولكننا نبدأ بالسؤال التالي: هل المسلمون اليوم مطالبون بتقديم فهم للإسلام؟ أم أن الاجتهادات السابقة استوعبت الأمر وفهمت الإسلام بما لا يدع مجالاً لأحد بمزيد، سواء جاء في القرن الخامس عشر الهجري أم بعده، ولا شك أن المجيبين سيختلفون كما يختلف السائلون عن معنى السؤال وحقيقته وغايته.

الإسلام: اسم للدين الذي دعا إليه الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام بعد أن أنزل عليه القرآن في مكة في القرن السابع الميلادي، وقد ورد اسم الإسلام في القرآن الكريم للدلالة على أنه اسم لهذا الدين في عدة آيات، وقبل دراستها ننظر في المعنى اللغوي والاصطلاحي، يقول ابن فارس: (سلم: السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى، قال أهل العلم: الله جل ثناؤه هو السلام، لسلامته مما

يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء، قال الله جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِۖ ..﴿٢٥﴾﴾ [يونس]، فالسلام: الله جل ثناؤه، وداره الجنة. ومن الباب أيضاً الإسلام، وهو الانقياد، لأنه يَسْلم من الإباء والامتناع)[1].

ويقول الراغب الأصفهاني: (سلم:

السَّلْمُ: والسّلاَمَةُ التَّعَرِّي مِنَ الآفَاتِ الظاهرةِ والباطنةِ، قال: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: 89]، أي مُتَعَرٍّ مِنَ الدَّغَلِ فهذا في الباطِنِ، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظاهرِ، وقد سلِمَ يَسْلَمُ سلاَمَةً وسلاَماً وسَلَّمَهُ اللهُ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾[الأنفال: 43]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 46]، أي سلاَمةٍ،... وَقيلَ السِّلْمُ اسْمٌ بإزَاءِ حَرْبٍ، وَالإسلامُ الدُّخُولُ في السِّلْمِ وهو أَنْ يَسْلَمَ كلُّ وَاحِدٍ منهما أنْ يَنَالَهُ مِنْ أَلَمِ صاحِبِهِ، ومصدرُ أسْلَمْتُ الشيءَ إلى فُلانٍ إذا أَخْرَجْتَهُ إليه ومنه السَّلَمُ في البيْع.

وَالإسلام في الشّرْع عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: دُونَ الإيمانِ وهو الاعْتِرافُ باللسان وبه يُحْقَنُ الدّمُ، حَصَلَ معه الاعْتِقَادُ أو لم يَحْصُلْ وَإيّاهُ قَصَدَ بقوْلِهِ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: 14].

والثاني: فوْقَ الإيمَانِ وهو أَنْ يكونَ مَعَ الاعْتِرَافِ اعْتِقَادٌ بالقَلْبِ ووفَاءٌ بالفِعْل وَاسْتِسْلاَمٌ للهِ في جَمِيعِ ما قَضَى وَقَدَّرَ، كما ذُكِرَ عنْ إبراهيمَ في قوْلِه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران: 19]، وقولُه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ [يوسف: 101]، أي اجْعَلْني مِمّن اسْتَسْلَمَ لِرِضَاكَ وَيُجُوزُ أنْ يكونَ معْنَاهُ اجْعَلْني سَالِماً عنْ أسْرِ الشَّيْطَانِ حيْثُ قَال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: 40]، وقولُه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النمل: 81]، أي مُنقادُونَ لِلحقِّ مذْعِنُونَ لَه. وقولُهُ: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ

---

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 487.

أَسْلَمُوا ﴾ [المائدة: 44]، أي الذينَ انقَادُوا مِنَ الأنبياءِ الذِينَ ليْسُوا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ لأُولِي الْعَزْمِ الذينَ يهْتَدُونَ بأَمْرِ اللهِ وَيَأْتُونَ بِالشَّرَائِعِ...)[1].

الآيات الدالة على أن الإسلام اسم للدين الخاتم:

قول الله تعالى في سورة المائدة المدنية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾ ﴾، وقول الله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات الثلاث اقترن اسم الإسلام بكلمة الدين، فقال تعالى: ﴿ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، أي إنَّ كلمة الإسلام اسم لهذا الدين الذي يرضاه الله من عباده، وأنه هو الدين المقبول عند الله، وأن الله لا يقبل ديناً غيره من الناس، والملاحظ على هذه الآيات التي اقترن اسم الإسلام فيها باسم الدين أنها كلها مدنية، وقد وردت كلمة الإسلام بصيغة الاسم ولكن غير مقرونة باسم الدين في الآيات المكية التالية:

قول الله تعالى في سورة الزمر المكية: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا ﴾، وقول الله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا... ﴾.

نلاحظ في الآيتين السابقتين أن عملية شرح الصدر من الله تعالى يسبق اسم الإسلام، أي إنَّ هناك فعلاً يقع في صدر الإنسان قبل قبوله الإسلام، وهذا الفعل هو الشرح وهو تهيئة صدر الإنسان لقبول الإسلام، أي إنَّ الشرح الذي يقع في صدر الإنسان هو فعل قبول الإسلام، ولذا ورد جذر لفظ الإسلام في صيغة الفعل الذي يأمر به الله تبارك وتعالى الناس جميعاً، وأصل الفعل هو: أسلم يسلم فهو مسلم بالصفة والحال،

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 421.

ونلاحظ أن ورود كلمة الإسلام في السور المكية لم يقترن باسم الدين كما اقترنا في السور المدنية، ولعل ذلك لأن دين الإسلام أصبح ضابطاً للحياة العامة في مجتمع ودولة المدينة المنورة، فاستعمل اسم الدين ليفيد معنى الدستور في المصطلحات الاجتماعية والسياسية المعاصرة، أي إنَّ جميع سكان الدولة الجديدة مطالبون بالخضوع لأحكام هذا الدين، لأنه الدستور العام لهم، ومما يستدل به على ذلك قوله تعالى من سورة يوسف المكية: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾، أي ما كان ليأخذ أخاه إلا وفق دستور الملك وقانون العقوبات فيه.

والملاحظة الأخرى أن ورود جذر لفظ الإسلام في القرآن الكريم في الصيغة الفعلية أكثر من وروده في الصيغة الاسمية، وفي السور المكية أكثر من السور المدنية، ومثال ذلك قولُهُ تعالى في سورة الصافات المكية: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

يُعلم من هذه الآيات الكريمة أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه إسماعيل، وأن إبراهيم أخبر ابنه إسماعيل بما أمره الله به، فاستجاب إبراهيم لأمر الله وطلبه، واستجاب إسماعيل لأمر أبيه وهو أمر الله من قبل، أي إنَّ هناك جهة تطلب وتأمر وجهة أخرى تسمع وتستجيب، فهنا فعلان متقابلان هما من يأمر أولاً، ومن يستجيب للأمر ثانياً، وكلا الفعلين يشكلان فعلاً واحداً هو الإسلام، فالإسلام بصيغة الفعل هو الموافقة على أمر الله تبارك وتعالى وطلبه، والموافقة فعل من الناس بأن تكون لهم استجابة لما يأمرهم به الله سبحانه وتعالى، فالإسلام في الاسم وفي الفعل وكذلك في الصفة هو القبول والرضا من الإنسان لما يأمر به المولى عز وجل، ولكنه في حالة الاسم قبول للدستور العام للحياة، أي قبول المواطنة في الدولة الإسلامية[1].

---

(1) حول مفهوم الدولة الإسلامية انظر: دراسة في السيرة، الدكتور عماد الدين خليل، ص 147. وكتاب: قراءة سياسية للسيرة النبوية، الدكتور محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ ـ 1996م، ص 107.

الإسلام في صيغة الفعل قبول فردي سواء من النبي أو ممن يسلم من الأنبياء ومن الناس، كما في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا ﴾، أي فلما وافقا على أمر الله تعالى وطلبه بالذبح بالرضا والقناعة تقبل الله تعالى هذا الموقف منهما على أنه هو الإسلام، أي إنَّ الإسلام هو الرضا والقبول لما يأمر به الله تبارك وتعالى، فإذا قابل الإنسان أمر الله وطلبه بالرضا فهو المسلم، فلا يتحقق للإنسان أن يكون مسلماً بمجرد رغبته بذلك بل لا بد أن يسبق ذلك أمر الله تبارك وتعالى، فإذا جاء الأمر والطلب أصبح الإنسان مخيراً بأن يكون مسلماً أي موافقاً وراضياً أو كافراً أي مغطياً سمعه عن الأمر الذي جاءه من الله ومكذباً به ورافضاً له ومتولياً عنه.

إذن الإسلام عقد يوثق بين اثنين أو موقفان يشتركان في موقف واحد، هما موقف من الله تبارك وتعالى يكون بالهداية أي بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وموقف من الإنسان بالقبول واتباع الرسول والرضا عن الكتاب المنزل، وبذلك جاءت الآيات ومنها قوله تعالى في سورة الصف المدنية: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾، فالإسلام في هذه الآية دعوة من الله تبارك وتعالى، وهو في هذه الآية بمعنى الاسم، وفي آيات أخرى موقف وقبول من الإنسان والناس، وبذلك جاءت بعض الآيات:

قول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾، فالآمر بالطلب هو الله تبارك وتعالى فقال له أسلم، والموافق على الطلب هو إبراهيم عليه السلام عندما قال: أسلمت، أي طلب وموافقة، وكذلك وصى بها إبراهيم بنيه أن يكونوا مسلمين.

وكذلك أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً أن يطلب من الناس في زمنه وهم في ذلك الحين نوعان هما أهل كتاب من يهود ونصارى أو أميّون أي العرب الذين لم ينزل عليهم

كتاب من قبل أن يسألهم أن يسلموا، فقال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾، فالإسلام في الآية إسلام الوجه من الرسول ومن الذين اتبعوه لله عز وجل، وإسلامهم يعني وافقوا على الهدى المنزل من الله تبارك وتعالى وبذلك فقد اهتدوا، ومقابل ذلك التولي أي الكفر والتكذيب.

ولكن من يقبل الإسلام بنفسه واختياره الشخصي ديناً له، لا يخرج عن الإسلام وهو دين ودستور للمجتمع الإسلامي، لأنه طالما عاش فيه فهو مطالب بالالتزام بقوانينه وأنظمته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مثل أي مواطن يخضع لدستور الدولة التي يعيش فيها ويطبق قوانينها، لأن الحكم الاجتماعي أو السياسي هو للأغلبية السكانية وما اختارت بإرادتها من فكر وثقافة ودين وقيم اجتماعية واقتصادية وسياسية، وبذلك نجد أن مفهوم الإسلام هو قبول للهداية من الله تعالى، بتوثيق الصلة بالله تبارك وتعالى في الحياة الفردية، وهو قبول للهداية والقوانين والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من الله تبارك وتعالى، وليس فيه إكراه في قبوله في الحياة الفردية الخاصة، وفيه مطالبة بقبول قيم المجتمع المسلم سواء من المسلمين أو من غيرهم، عندما استعمل القرآن اسم الدين مقروناً بالإسلام، بمعنى أنه دستور الحياة العامة، ودستور الحياة العامة يلتزم به من يؤمن به ومن لا يؤمن به، طالما اختار بحرية تامة العيش في ظل هذا الدستور وهذا المجتمع وهذه الدولة.

المبحث الثاني: مفهوم الإيمان معرفياً

ميز القرآن الكريم والسنة النبوية بين الإسلام والإيمان، أما القرآن الكريم ففي قول الله تعالى من سورة الحجرات المدنية: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ..﴿١٤﴾﴾، وجاء تفصيل ذلك وبيانه في السنة النبوية الشريفة، وبالأخص في كتب الإيمان في الصحاح والسنن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية «وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله رهطاً ولم يعط رجلاً وهو أحب إلي منهم فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني أراه مؤمناً قال: أو مسلماً مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله على وجهه في النار».

ولهذا قال أبو جعفر الباقر وغيره من السلف: الإسلام دائرة كبيرة والإيمان دائرة في وسطها، فإذا زنا العبد خرج من الإيمان إلى الإسلام كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». وهذا أظهر قولي العلماء أن هؤلاء الأعراب الذين قالوا أسلمنا ونحوهم من المسلمين الذين لم يدخل الإيمان المتقدم في قلوبهم يثابون على أعمالهم الصالحة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: 14]، **«وهم ليسوا بكفار ولا منافقين بل لم يبلغوا حقيقة الإيمان وكماله»**[1].

ويحسن أن نتعرف على المعنى اللغوي، قال ابن فارس: (أمن: الهمزة والميم والنون **أصلان** متقاربان: أحدهما **الأمانة** التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر **التصديق**، والمعنيان كما قلنا متدانيان. قال الخليل: الأمنة من الأمن، والأمان إعطاء الأمنة، والأمانة ضد الخيانة،.. وبيت آمن: ذو أمن، قال الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: 35]،.. وأما التصديق فقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، أي مصدق لنا)[2].

---

(1) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، 28/ 43 و 7/ 5 وما بعدها.

(2) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 83.

تبين معنا قبل قليل أن مفهوم الإسلام هو القبول، والقبول للإسلام في الموقف الفردي الشخصي هو الدخول في الإسلام والتلفظ بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، وأما قبول الإسلام في الحياة العامة فهو الالتزام بأحكامه وتشريعاته في الحياة العامة، بمعنى عدم مخالفة دستور المجتمع المسلم والدولة المسلمة، والتي تقررت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، كما سبق بيانه.

أما الإيمان فهو التصديق بالعلم الذي يحدث بناء معرفياً يغير من عقل الإنسان وعلمه وقيمه ومعاييره ومقاييسه وعمله ومشاعره، أي إنَّ الإيمان في المفهوم المعرفي الفلسفي هو التصديق بالعلم الذي ينظم حياة الإنسان، فالإنسان هو الذي يكون إيمانه بقراءة وعقله وعلمه وتصديقه بما يقتنع به بنفسه، سواء كان من مصدر ديني أو من مصدر دنيوي، ولكن الاصطلاح الإسلامي والتداولي حصر كلمة الإيمان بالتصديق بالعلم الذي أوحى به الله إلى أنبيائه، وكما ينظم الإيمان علم وعمل الإنسان في حياته الشخصية الخاصة، فإنه ينظم حياة الناس الاجتماعية، وينظم حياتهم الاقتصادية والسياسية، سوف نأتي على بيانها، أما تنظيم حياة الإنسان الشخصية العلمية والعملية فإنها تتركز في ثلاثة مستويات إيمانية فردية هي:

الأول: إيمان يشكل قناعات الإنسان الفكرية العقلية الفردية.

الثاني: إيمان يشكل قيم الإنسان الأخلاقية السلوكية الفردية.

الثالث: إيمان يشكل شخصية الإنسان المسؤولة قانونياً في الدنيا والآمنة في الآخرة.

فهذه قناعات إيمانية في مستواها الفردي، وهي تصديق بالعلم الفكري والعلم الأخلاقي والعلم المسؤول الآمن، والعلم المسؤول هو الذي يكون شخصية ملتزمة بالقانون والشريعة في الدنيا، ومؤمنة بالبعث بعد الموت، وأنها سوف تحاسب يوم القيامة على العلم الذي تعلمته وصدقته، وسوف تحاسب على العمل الذي فعلته، فهذه القيم هي مكونات الإيمان الفردي في العلم المصدق والعمل المصلح والمستقبل الآمن، أي إنَّ الإيمان في نظر الإسلام هو مفهوم معرفي أولاً، ثم تصديق بالقيم العلمية ثانياً، ثم أمن وأمان ثالثاً، كما تبين في المعنى اللغوي.

لذلك توجهت كثير من الآيات الإيمانية لمخاطبة الإنسان بالصيغة الفردية المطلقة، مثل قول الله تعالى في سورة طه المكية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾، وقوله تعالى من سورة النساء المدنية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾، ولم يقل وهو مسلم، فدل على أن مفهوم الإيمان المعرفي الفردي فيه التصديق بالعلم وفيه العمل الصالح وفيه المسؤولية الآمنة، ولذلك اقترن الحديث عن الإيمان بالعمل الصالح للأفراد وبالمستقبل الآمن للإنسان بعد الموت، كما جاء في الآيات القرآنية بأنه لا يخاف ظلماً ولا هضماً في آية، وفي الأخرى يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً، وبهذا المعنى قال شيخ الإسلام ابن القيم: (فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيّاً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه)[1].

وقد جاء الحديث عن العلم الجماعي والعمل الصالح للمجتمع حيثما وردت الآيات التي تتحدث عن الجماعة مثل قول الله تعالى في سورة ص المكية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، وقول الله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾، وقول الله تعالى في سورة البينة المدنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾.

وبهذا المعنى يكون الإيمان تصديقاً بالإسلام معرفياً وعقلياً، لأن الإسلام هو العلم المنزل، وبهذا المعنى جاءت الكثير من الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى من سورة البقرة المدنية: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ ويكون الإيمان تصديقاً بالدين عندما يكون الإسلام اسماً للدين، أي إنَّ الإيمان هو العلم العملي والفعل العلمي الذي يصدق بالإسلام، فهنا الإسلام اسم والإيمان فعل معرفي تقوم به النفس الإنسانية المسلمة، وهو فعل معرفي يقوم به المجتمع الإسلامي الذي يتكون من مجموعة بشرية من المسلمين، الذين اختاروا بإرادتهم أن ينظموا علاقاتهم الاجتماعية

(1) زاد المعاد من هدي خير العباد، 2/ 106.

بأحكام علمية نزل بها الوحي، والتي أوَّلها المسلمون إلى واقع معرفي ومدني، في بيانها وتفسيرها ثقافياً، وفي تأولها مجتمعات إسلامية ودولاً إسلامية وحضارة إنسانية متميزة وكبيرة.

إن العلاقة المهمة التي نؤكد عليها هنا هو ارتباط معنى كلمة الإيمان بالتصديق العلمي، أي بالمعنى المعرفي الفلسفي للإيمان، فليس الإيمان تصديقاً بالقلب دون فهم عقلي وتفكير علمي، لأن التصديق يحتاج إلى مادة معرفية يصدق بها، وقد وصف الله عز وجل الوحي المنزل بالعلم، كما في قوله تعالى في سورة النجم المكية: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾، وكما في قوله تعالى من سورة البقرة المدنية: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٥ ﴾، وقوله تعالى المائدة المدنية: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ ﴾.

فالإيمان أولاً قراءة ثم تصديق بالعلم وموقف علمي ثم اطمئنان قلبي ثم عمل بمقتضاه، ولذلك قال له: فإن تولوا فاعلم، أي ليكون موقفك موقفاً معرفياً علمياً، وهو ما تأكد في الكثير من الآيات القرآنية، أما الأمور الغيبية فالإيمان بها تبع للإيمان المعرفي العقلي العلمي بصدق الرسالة والرسول، كما قال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥ ﴾، وللتأكيد على المعنى المعرفي جاءت كلمة الإيمان مقرونة بحرف الباء الذي يفيد تقييد المصدق به، لأن «لفظ الإيمان في القرآن إما مقيد، وإما مطلق مفسر، فالمقيد كقوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: 3]، وقوله: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [يونس: 83]، والمطلق المفسر كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: 15]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65]، وأمثال هذه الآيات، وكل إيمان مطلق في القرآن فقد تبين فيه أنه لا يكون الرجل مؤمناً إلا بالعمل مع التصديق، فقد بين في القرآن أن الإيمان لا بد فيه من عمل مع التصديق، كما ذكر مثل ذلك في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج»[1].

فلا يطلق اسم الإيمان المعرفي إلا إذا تحدد أن المصدق به هو العلم المنزل من عند الله تعالى، كما قال تعالى في سورة الشورى المكية: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

فالإيمان الذي يقوم به المسلم هو فعل معرفي قائم على التصديق العقلي والعلمي بما أنزل الله تبارك وتعالى في القرآن من معان علمية، منها أمور كونية وطبيعية في عالم الشهادة، ومنها أمور غيبية من عالم الغيب، والتصديق بها هو تصديق علمي لأنه قائم على التصديق المعرفي العقلي لعالم الشهادة، فالإيمان بالغيب هو تصديق بالأخبار الغائبة عن عالم المشاهدة بالحواس، وليس التي لا وجود لها، فهي موجودة ولكنها غير مدركة بحواس الإنسان بسبب قيود الإمكان أو المكان أو الزمان، ولذلك وصفت بأنها غائبة عن القدرات المعرفية الإنسانية، أي إنَّ الغيب هو ما غاب عن قدرات الإنسان المعرفية فهي غيب بالنسبة للموقف المعرفي للإنسان، وكذلك الإيمان بعالم المشاهدة منه ما هو غائب عن الموقف المعرفي الصحيح أو الكامل أو المحدود عن حقائق كونية وحقائق طبيعية مثل خلق الإنسان والسماوات والأرض وكل ما سخر فيها، فهو إيمان معرفي نسبي بقدر ما لدى الإنسان من حقائق علمية عن عالم الكون والشهادة، أي بقدر مشاهدة الإنسان

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 127.

وتجاربه فيها وانتفاعه بها، فهو إيمان مقرون بالقدرة على التفكير والبحث والاكتشاف والتدبر فيه، وهذا التصديق تصديق عقلي وعلمي وقلبي وليس تلفظ أقوال فقط[1]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[الشورى: 15]، فالإيمان بما أنزل من كتاب أي إيمان بما أنزل في آيات وسور الكتاب من معان وعلوم.

هكذا نجد أن الإسلام في المعنى اللغوي أعم من الإيمان وأوسع منه، لأنه قبول كلي للدين، بينما الإيمان بالمعنى الاصطلاحي موقف معرفي دقيق وتفصيلي لما في الدين الإسلامي من معان وقيم متعددة المجالات ومتنوعة الوجود، ولذلك يدخل مفهوم الإيمان الزيادة والنقصان، والقوة والضعف، والإثبات والنفي، على المسلم وهو شخص واحد، وعلى المجتمع المسلم وهو تجمع بشري متميز بثقافته وإيمانه، تبعاً لثقافته وإيمان أفراده وعلاقاتهم الاجتماعية المشتركة، وأيضاً يدخل الموقف المعرفي بالزيادة والنقص بالإيمان على الدولة الإسلامية بحسب درجة تمسكها بأحكام الإسلام وشرعه كما سيأتي.

(1) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 388.

المبحث الثالث: المفهوم العملي لزيادة الإيمان ونقصه

المفهوم العلمي لزيادة الإيمان ونقصه ثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[1]، وقد فصل العلماء ذلك في كتب الإيمان والتوحيد والعقائد الإسلامية، وأما ما نحاوله في هذا البحث فهو بيان المفهوم العملي لزيادة الإيمان ونقصه، وثباته أحياناً ونفيه أحياناً أخرى، فأمر الزيادة والنقصان تعتمد على عدة درجات منها:

1 ـ درجة معرفة العلم المصدق به.

2 ـ درجة عمق العلم المصدق به.

3 ـ درجة الاطمئنان إلى العلم المصدق به.

4 ـ درجة الالتزام العملي بالعلم المصدق به.

فالإيمان يزيد وينقص بدرجات العلم إن كان كبيراً أو بسيطاً، وعمقه إن كان من عالم أو من طالب علم جديد، فتتفاوت درجات الإيمان بمستوى عمق العلم المصدق به، ودرجة الاطمئنان إليه، وبقدر الالتزام العملي به، قال الإمام أحمد بن تيمية: (وقد احتج «الإمام أحمد» على أن الأعمال من الإيمان بحجج كثيرة فقال: وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا خمساً من المغنم، فجعل ذلك كله من الإيمان، قال: وقال النبي الحياء شعبة من الإيمان، وقال: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وقال: إن البذاذة من الإيمان، وقال: الإيمان بضع وستون شعبة فأدناها إماطة الأذى عن الطريق وارفعها قول لا إله إلا الله مع أشياء كثيرة، منها: اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وما روى عن النبي في «صفة المنافق ثلاث من كن فيه فهو منافق»، مع حجج كثيرة)[2].

لقد جاءت آيات قرآنية عديدة تفيد اختلاف مستويات الإيمان مثل قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا

(1) انظر: الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الإيمان، ص 1/ 9.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 400.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، وقوله تعالى من سورة الأنفال المدنية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٤﴾﴾، ولم تأت: أولئك هم المسلمون حقاً، وهذا يعني أن الإسلام اسم عام للقبول بما أنزل، والإيمان اسم تفاضلي للتصديق بما أنزله الله تعالى، الإسلام غير قابل للتجزئة في القبول به أو الرضا عنه، فهو قبول عام، وإسلام الوجه لله لا يتجزأ، وأما التصديق بما أنزل فلا بد أن يسبقه علم بما أنزل، والتصديق يكون بقدر المعلوم به، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه: درجة الإيمان، أو الإيمان الموصوف بصفة حسنة وإيجابية، كأن يوصف الإيمان بالإيمان الحق، أو المؤمنون حقاً وصفاً لأهله، وهو ما يمكن تفصيله عملياً بالإيمان النوعي.

الإيمان النوعي هو التصديق بنوع معين من العلوم المنزلة في القرآن والسنة النبوية تصديقاً علمياً وعملياً، أي بعد البحث المعرفي والعلم بها فعلاً والعمل بها فعلياً، فلا يكون التصديق عاماً فقط، بل وقابلاً للتجزئة بمعنى أن الإيمان يتناسب طردياً مع العلم ونوعه مما أنزل في الكتاب، فإيمان العالم المسلم ينبغي أن يكون بالضرورة أكبر من إيمان المسلم غير العالم ـ الجاهل ـ لأن العبادة العلمية التي يبذلها العالم أكبر، ولذا كان العلماء أكثر الناس خشية لله تعالى، وإيمان العالم المختص بتفسير آيات العلوم الطبية في القرآن الكريم يختلف نوعياً عن إيمان العالم المختص بتفسير آيات البيان «الإعجاز» الكوني الفيزيائي، أو البيان من العلوم اللغوية أو البيان من العلوم التربوية أو من العلوم الاجتماعية أو من العلوم الاقتصادية أو من العلوم السياسية المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وعلى أساس وصف الإسلام بأنه عقد مع الله تعالى، وأن الإيمان هو التصديق المعرفي بقدر معلوم من المعاني والقيم الإيمانية، فإن هذا القدر من التصديق المعرفي هو درجة إيمانية ونوع إيماني بحسب المصدق به كما بينا، وهو ما اصطلح عليه العلماء بشعب الإيمان[1]، اعتماداً على الحديث النبوي الشريف: (الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها أو

(1) انظر كتاب: شعب الإيمان، للإمام البيهقي (458هـ)، تحقيق حمدي الدمرداش، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ ـ 2004م. وكتاب: مختصر شعب الإيمان، للقزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ ـ 1983م.

فأرفعها أو فأفضلها على اختلاف الروايات: قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)[1].

وفي كل هذه الشعب أمور بينتها الآيات القرآنية والسنة النبوية، ولذا فإن أنواع الإيمان تدخل في التصنيف الكلي لشعب الإيمان الكلية، وكل شعبة من شعب الإيمان تمثل بنداً في ميثاق الإيمان، والأخذ بالأحكام والالتزام بها هو الميثاق الإيماني مع الله تبارك وتعالى، وهو عهد المؤمنين مع بعضهم البعض، وبهذا المعنى كان الإسلام عقداً مبرماً مع الله تبارك وتعالى، والإيمان التزام ببنود هذا العقد، وهذه البنود هي الميثاق، فالإسلام عقد والإيمان ميثاق، العقد عام والميثاق متنوع الأحكام، منها الأحكام الثقافية والأحكام الفكرية والأحكام الاجتماعية والأحكام الاقتصادية والأحكام السياسية وغيرها، والإخلال ببنود الميثاق نقص في الإيمان، وإن لم يؤد إلى إلغاء العقد كله، أي وإن لم يخرج المسلم من دائرة الإسلام، وبهذا المعنى جاء حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب الخمر وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع المؤمنون إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)[2]، لأنه إذا قام بإحدى هذه المخالفات فقد أخل بأحد بنود الميثاق الإيماني، وخالف هذا البند في الميثاق، ولكنه لم يخرج من عقد الإسلام.

ولتوضيح ذلك نضرب مثلاً ولله المثل الأعلى، فالأمر شبيه بتوقيع عقد عمل في مؤسسة ما، فبتوقيع هذا العقد يصبح الموقع موظفاً في هذه الشركة، وفي عقد الوظيفة

---

(1) الحديث ورد بألفاظ مختلفة. منها: الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان، أخرجه الإمام أحمد في مسنده 2/ 414. ومسلم 1/ 35. وأبو داود، والنسائي في الإيمان 5/ 5019. وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد ـ ومنها: الإيمان بضع وستون شعبة والحياء من الإيمان، أخرجه البخاري 1/ 9. وابن حبان في صحيحها عن أبي هريرة. انظر: شعب الإيمان للبيهقي 1/ 29. وكتاب مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص 2.

(2) الحديث في الصحيحين، صحيح البخاري، كتاب الأشربة، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان.

يوجد بعض الشروط والتعليمات، ثم يعطى تباعاً بعض التعليمات الواجب اتباعها أثناء العمل فيها، فالعقد الموقع بعمومه هو المشابه لعقد الإسلام، بينما الالتزام بالبنود المنظمة للعمل هو عقد الإيمان، ولا بد أن كل موظف هو مسلم، ولكن ليس كل الموظفين بنفس الدرجة من الالتزام بعقد العمل، فلا يخرج من عقد الإسلام أحد من المسلمين إلا إذا فسخ عقد العمل نفسه، وليس إذا أخل بأحد بنود العمل.

والتزام الميثاق الإيماني يتطلب الموقف المعرفي والعلم والتصديق به والاطمئنان إليه والعمل به، وهذا هو الإيمان الكامل، فلا يكتمل إيمان مسلم وهو جاهل بأحكام الميثاق الإيماني، ولا يكتمل إيمان مسلم وهو غير مصدق بالحكم الذي يعمل به، بل يكون غير مصدق بهذا الحكم ما لم يكن قد اقتنع به معرفياً وعقلياً، وقد يكون منكراً أو جاهلاً بالعلم الذي فيه، مثل جهل صواب حكم اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، فهذا نقص إيمان، إذا أصر عليه المسلم فإنه يجعله ضعيف الإيمان وقد يخرجه من الإسلام، وأما إذا اعتقد صوابه ولم يستطع تطبيقه وتنفيذه فإنه يدخل في نقص الإيمان بحسب نيته وقدرته، وإن لم يبطل العقد الأصلي له وهو مسلم.

والإيمان الجماعي هو إيمان اجتماعي من المسلمين الموافقين على العقد والملتزمين بميثاقه أي بالدستور الاجتماعي، وهو الذي جاء بصيغة الشرط في كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي فيها: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، أي إن كنتم ملتزمين بالعقد، وصادقين بالعهد مع الله تبارك وتعالى، فالعهد هو الصدق في تنفيذ الميثاق، فقبول هذا العقد العام هو الإسلام، فإذا كان القبول من الفرد المسلم فهو قبول فكري، وهو قبول اجتماعي إذا كان قبولاً للإسلام من غالبية أفراد ذلك المجتمع، وهو إيمان اجتماعي إذا كان الالتزام بالميثاق والدستور من مجموعة سكانية يحدها موقع جغرافي مثل يثرب التي أصبحت بعد التزامها بدستور الإسلام السياسي وعملها بميثاقه الإيماني المدينة المنورة.

---

(1) انظر: مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص 12 و ص 15.

فإذا تدبر الباحث مواضع ذكر الإيمان في القرآن الكريم والسنة النبوية تبين أصناف الإيمان وشعبه، والتي إما بدأت بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ﴾ ثم الدخول في موضوع النداء، أو بالثناء عليهم بعد موضوع أو تصديق معين بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أو حسن الثواب في الآخرة، أو ورود صيغ الشرط مثل قوله تعالى بعد تصديق معين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وغيرها، فهذه الآيات القرآنية تبين شعب الإيمان وأنواعه، منها الفردي في تعريف المؤمن وصفاته الأخلاقية والفكرية، ومنها الإيمان الجماعي الذي يتحدث عن الحياة الإسلامية الجماعية.

قال البخاري رحمه الله: (وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي[1]: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعِشْ فأبينها لكم حتى تعملوا بها)[2]، فالأصل أن يكون في كل خطوة فيها كسب لعلم صحيح أن يكون فيها زيادة في الموقف المعرفي الصحيح أولاً، وزيادة في إيمان قيمي صادق ثانياً، وزيادة في الأمن والأمان ثالثاً، وقد وصف الإمام البخاري شعب الإيمان بالأمور، فجعلها في باب سماه: أمور الإيمان.

وقبل البدء في بحث أنواع الإيمان أو شعبه وكيفية زيادته ونقصانه علمياً وعملياً، نفضل أن نبين الفرق بين مصطلحي الإيمان والاعتقاد، فالإيمان هو تصديق علمي بالنصوص الإسلامية الأصلية الثابتة في القرآن الكريم وفي بيانه النبوي الصادق، بينما الاعتقاد هو التصديق بالتفسيرات العلمية للنصوص الإيمانية، فالإيمان تصديقٌ بالعلم كما ورد في المصدر، والاعتقاد تصديق بالمعنى الذي يفسر الإيمان، وبذلك يكون مصدر الإيمان هو الإسلام بينما مصدر العقيدة هو الاجتهاد العلمي، وبذلك يشترك كافة

---

(1) عدي بن عدي: تابعي، ولي للخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على الجزيرة والموصل، قال البخاري: هو سيد أهل الجزيرة، وقال أحمد بن حنبل: عدي لا يسأل عن مثله، توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة، انظر: البخاري شرح الكرماني، ص 1/ 72.

(2) انظر: الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الإيمان، ص 1/ 9.

المسلمون في إيمان واحد ولكنهم قد يختلفون في عقائدهم في فهم نصوص الإيمان الإسلامية[1]، وسوف نصطلح على جمع شعب الإيمان في سبعة أنواع رئيسة، أو سبعة أقسام تشكل في مجموعها الإيمان الكلي أو الإيمان الكامل، ونبين من خلال هذه الأقسام المفهوم العملي لزيادة الإيمان ونقصه.

(1) للمزيد انظر: شرعية الاختلاف بين المسلمين (إسلام واحد وتعددية فقهية وعقدية وسياسية في الاجتهاد والشورى والدولة)، عمران سميح نزال، دار القراء، عمان، ودار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، 1425هـ ـ 2004م، ص 53.

المبحث الرابع: أنواع الإيمان

النوع الأول: الإيمان الفكري

يقوم الإيمان الفكري على أساس الفاعلية المعرفية البشرية، فقد منح الله تبارك وتعالى الإنسان القدرة على بناء عقله بالقراءة والتعلم، ومكنه من تقدير تفكيره وضبط معارفه، ومنحه القدرة على التصديق بما هو حق وعدل والعمل به، ومنحه القدرة المعرفية على تكذيب الباطل وإنكار الظلم واجتنابه، فقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

الإيمان الفكري هو القناعة العقلية بالقيم والمبادئ والأفكار التي يصدق بها الإنسان المسلم من مصدر الدين الإسلامي، أي من الكتاب الكريم والسنة النبوية، والقناعة العقلية تقوم على التفكير الحر والنقد العلمي، وليس على تقليد الآباء ولا تقليد الموروث العقلي ولا التسليم للمعجزات والعجائب والأساطير، وقد أكد المولى عز وجل على النقد العلمي لأي معلومة عقدية مهما كان مصدرها فقال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي إنَّ الله تبارك وتعالى أمر بالمحاسبة العلمية لكل معتقد، حتى لو كان من أوامر الوالدين والمربين المقربين، وحتى لو كانت من معتقدات الأديان السابقة أو من العادات أو التقاليد أو التراث، لأن الإيمان في الإسلام فعل معرفي أولاً ثم تصديق بالعلم الحق، وهذا خلاف ما يشاع من أن الإيمان الديني أو العقل الديني يقوم على التسليم القلبي فقط، أو أن لا يسمح بالنقد العلمي ولا بالتفكير العقلي، فهذا خلاف الحقيقة، فالأولية في الإيمان الإسلامي هي للقراءة المعرفية التي بدأ الوحي نزوله بها في غار حراء كما في سورة العلق، حتى يتحقق التصديق العقلي قبل التسليم القلبي، وعكس هذه المنهجية، بحيث

يقدم التسليم القلبي على التصديق العقلي يصنع إيماناً ضعيفاً، وهو ما تجنبه القرآن الكريم عندما دعا إلى الإيمان العلمي والفكري.

الإيمان الفكري هو أساس البناء الإيماني الكلي، وهو أصل الدين، وقد وصف العلماء في الماضي الإيمان الفكري بأوصاف متعددة لعل لكل واحدة منها فائدة ومدلولاً خاصاً منها: علم الإيمان أو أبواب الإيمان، وعلم التوحيد، وعلم أصول الدين، وعلم العقائد، وعلم الكلام، والفلسفة الإسلامية، أو غيرها من الأسماء والأوصاف والمصطلحات، وكلها تؤكد أصالة هذا العلم على غيره من العلوم، وكل أنواع الإيمان وشعبه تبنى عليه لأنه أساس الدين كله، ولأنه أرفعها أو أعلاها لأنَّ فيه التوحيد والشهادتين كما جاء في الحديث النبوي الشريف: (الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها أو فأرفعها أو فأفضلها على اختلاف الروايات: قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)[1].

والتصديق بالشيء يوثقه العمل بمقتضاه، لأن العمل عند الإنسان ناتج عن موقف فكري يحثه على القيام بالعمل، فإماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان وهي فعل، ولكنه مسبوق بقناعة عقلية بصحة هذا الفعل وفائدته للناس، هذه القناعة هي الإيمان، فالعمل تابع لها، والإيمان هو الداعي له، وبهذا المعنى تدخل الزيادة على الإيمان الفكري بكل نوع إيماني جديد وبكل عمل ينفع الناس ويتقرب به إلى الله تبارك وتعالى، أي إنَّ كل شعبة من شعب الإيمان تزيد في إيمان المسلم إذا اقتنع بها وصدقها وطبقها، وكذلك يوصف الإيمان بالضعف أو بالنقص أو عدم الكمال، كما جاء في الحديث النبوي: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. ومن لم يستطع فبقلبه. **وذلك أضعف الإيمان**)[2]، فوصف الإيمان بالضعف ثابت في السنة النبوية، وهو متعلق بموقف فكري وموقف عملي، مثل الإنكار بالقلب، مع العلم بوجود إيمان أقوى منه وأفضل، وهو الإنكار باللسان، مع العلم بوجود ما هوى أقوى منه وأفضل وأكمل وهو الإنكار باليد.

---

(1) أخرجه البخاري 1/ 9. ومسلم 1/ 35. وأحمد 2/ 414. وقد سبق تخريجه مفصلاً.

(2) صحيح مسلم، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رقم (78).

وحيث إنَّ الإيمان العقدي هو اجتهاد تفسيري في العبادة العلمية للمسلمين، وهو اجتهاد تأويلي في العبادة العملية التطبيقية، فإن كل زيادة في الاجتهاد الفكري يؤدي إلى زيادة في الإيمان الفكري الاعتقادي عند المجتهد، وبذلك يتكون بناء من الاجتهاد العقدي عند العلماء يوصف بالعقائد الإسلامية، تمثل رؤية المسلمين للإسلام والعالم المعاصر، وهذا الموقف الإيماني الفكري يمثل فلسفة إيمانية، لأنها تقوم بالدرجة الأولى على أساس التمسك بالمنهج المعرفي أولاً، ثم على أساس التمسك بالقيم الإيمانية الصحيحة ثانياً، والتمسك بالقيم التي تحقق الأمن والأمان ثالثاً، وبذلك تكون الفلسفة الإيمانية الإسلامية متميزة عن غيرها من الفلسفات الدينية لأنها تقوم على الأساس المعرفي قبل الأساس القيمي، وتحقق الأمان النفسي للمؤمن بها، فالإيمان الفكري ليس مجرد تصديق بقيم وأحكام عقدية، وإنما التزام بمنهج معرفي دعا إليه القرآن نفسه، وأمان نفسي يملأ القلب طمأنينة، فالأساس المعرفي هو ما دعا إليه الإسلام وأمر بتحكيمه، في مثل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

الإيمان الفكري هو التصديق المعرفي بالعلم الذي يقيم في النفس الإنسانية المعاني الصحيحة عن الخالق سبحانه وتعالى، ويوجد التصور المقنع عن حقيقة الكون والحياة الإنسانية، لذا خلق الله تعالى في الإنسان القدرة على التفكير والعقل وميزه بذلك عن المخلوقات الأخرى ليصل بنفسه إلى المعاني الفكرية الصحيحة، مثل التصديق بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، والتصديق بالأنبياء والرسل والكتب المنزلة، ومن الإيمان الفكري الإيمان بالرسل، لأن الفكر العقلي قادر على إثبات حاجة البشر إليهم، وقادر على إثبات أن القرآن كلام الله تبارك وتعالى[1].

(1) انظر: مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص 5 و ص 7.

لقد أرشد القرآن الكريم إلى هذا النوع الإيماني التفكيري وحض على التفكير في العديد من الآيات القرآنية منها: قول الله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾، وقول الله تعالى في سورة الحشر: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

الفهم العقلي والتفكير العلمي والمناهج المعرفية الحرة هي أساس الإيمان الفكري، والإيمان الفكري هو فلسفة الإسلام الفكرية، أو هو الفلسفة الفكرية الإسلامية، وهو أساس كل إيمان لاحق، وهو أساس الأمان النفسي الذي يطمئن الإنسان على إيمانه وقناعاته ومستقبله، وهو أساس الإيمان الكلي الذي دعا إليه الإسلام في أنواع الإيمان وشعبه كما سيأتي.

النوع الثاني: الإيمان بالغيب الديني

كان الإيمان الفكري هو التصديق المعرفي بالعلم الذي أنزله الله تعالى على نبيه ورسوله في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، وكان من الأمور التي دعا القرآن الكريم إلى الإيمان بها الإيمان بالغيب، والغيب هو ما غاب عن حواس الإنسان وإن لم يغب عن عقله وعلمه، فالوجود كله إما شهادة وإما غيب، وقد جاء الطلب في الإسلام

يدعو إلى الإيمان بنوعين من الغيب، وهما غيب الماضي وغيب المستقبل، أما غيب الماضي فهو ما غاب عن الناس من علوم عن كيفية خلقهم، وقصة وجودهم على الأرض وعن أصلهم، وعن الأمم السابقة، وعمن أرسل إليهم من أنبياء الله ورسله، وما أنزل عليهم من كتب وصحف من الله تعالى، وفي الإعلام عن غيب الماضي استعمل القرآن الكريم المنهج المعرفي القصصي، وذلك بجعل قسم كبير من القرآن الكريم يقص التاريخ السابق بأسلوب خطابي ومنهجي متميز، كما قال تعالى في سورة يوسف المكية: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾، فالأسلوب الخطابي قصصي، وهو عبرة للعقلاء وهم أولوا الألباب، وهو منهج معرفي صادق لأنه لا افتراء فيه، بل هو بصدقه حجة على صدق النبي عليه الصلاة والسلام الذي نزل عليه القصص، وهو دليل صدق للأنبياء السابقين، الذين صحح القرآن الكريم مكانتهم وأثنى عليهم بعد أن أساء إليهم المفترون من قتلة الأنبياء، وهو أخيراً، أي القصص القرآني هدى ورحمة لأهل الإيمان الصادق، فالغاية من المنهج المعرفي القصصي في القرآن الكريم هي العبرة، والتفكر في تاريخ الأمم السابقة وما حل بهم كما في قوله تعالى من سورة الأعراف المكية: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾، فالتفكر في التاريخ منهج معرفي يؤسس للوعي التاريخي بحركة البشر على الأرض.

ولذا كان من آكد ما قصه القرآن الكريم قصص الأمم السابقة التي بعث فيها أنبياء ورسل، وبالأخص الذين بقي لهم أتباع حتى بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، والذين وصفهم القرآن الكريم بأهل الكتاب، وذلك لتشكيل وعي تاريخي عن هذه الأمم ومواقفها من العلم المنزل في كتب الله، ومواقفها من أنبياء الله ورسله، وقد تحدث القرآن الكريم عن مواقف الأمم السابقة من أنبياء الله ورسله وكتبه، وأعطاها الحيز الكبير منه ليكشف المواقف الباطلة للمكذبين، ومن أجل أن يكون الإيمان بالغيب السابق رابطاً بين جميع أنبياء الله ورسله في رسالة واحدة وإيمان واحد ودين واحد وتاريخ إنساني واحد.

إن في قول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾.

إن في هذه الآية دلالة على وحدة الإيمان بين المؤمنين الصادقين من أتباع كل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ولذا كان الإيمان بالغيب الماضي التاريخي فيه العبرة والقوامة للناس كافة، وبالأخص أولي الألباب منهم والعقول، ليعلم الناس أن الله تبارك وتعالى لم يخلقهم ليختلفوا ويتنازعوا ويتحاربوا وإنما ليرحمهم ويهديهم إلى إيمان واحد بالله الواحد الأحد.

والنوع الثاني من الغيب هو غيب المستقبل، وأخص الإيمان الغيبي المستقبلي هو ما يحل بالإنسان بعد الموت، فأخبر القرآن الكريم الناس عن يوم يحاسب فيه الناس عما قدموا من أعمال، فقال تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾، وقوله تعالى من سورة النساء المدنية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾، والغاية من الإيمان بالغيب المستقبلي هو تكوين الشخصية المسؤولة عما تفعل، وأن الإنسان لن يترك سدى.

هذا النوع من الإيمان وصف بالإيمان بالغيب أولاً، لأنه متعلق بالتصديق بما لا يشاهد بالنظر ولا بالبصر ولا بالحواس، وقد قيد الغيب بالغيب الديني ثانياً، لأن المقصود من ذلك أن يقيد بالغيب الذي مصدره من الدين، أي بالخبر الصادق الذي دعا الدين نفسه إلى التصديق به وهو غيب، وهو ما جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، وقد خص هذا النوع من الإيمان بالقيد الديني لأن ما يميز الدين عن غيره من المعارف والعلوم الدنيوية وجود بعض الموضوعات الغيبية التي يدعو الدين إلى الإيمان بها، فالإيمان بالغيب ميزة للتصديق الديني أيضاً، وميزة للعقل الديني أيضاً، ولكن ليس

تصديقاً بأي معلومة عن الغيب وإنما لنوع معين فقط، وهو ما جاء الخبر الصادق يطلب الإيمان به، فالشرط الأساسي لهذا النوع من الإيمان بالغيب أن يكون مصدره موثوقاً من دين الإسلام وليس من مصدر غيره.

وبالرغم من أن الإيمان بالغيب هو إيمان فكري من حيث طبيعته كمعتقد تصديقي، إلا أن تمييزه عن الإيمان الفكري الذي ذكرناه في النوع الأول ضروري، وذلك بسبب أن الإيمان الفكري يسبقه فعل معرفي وتفكير عقلي ومحاسبة علمية، فهو إيمان قائم على التفكير والعقل والضوابط المعرفية والمنهجية العلمية، بينما الإيمان بالغيب الديني قائم على مصداقية الإيمان الفكري، فالأصل هو الإيمان الفكري، فمن آمن بالإيمان الفكري فإنه مطالب بالإيمان بالغيب الذي أخبر عنه الدين، أي إنَّ أصله معرفي وعقلي وعلمي، ولذا كان الإيمان بالغيب زيادة في الإيمان، لأنه تصديق بما أمر الإيمان الفكري التصديق به، وعدم التصديق بالإيمان الغيبي يبطل الإيمان الفكري لأنه من لوازمه، أي إنَّ التصديق بالإيمان الغيبي حجته من مصداقية الإيمان الفكري، الذي هو ثابت بالعقل، أي إنَّ الأساس المعرفي للإيمان بالغيب موجود، وإن لم يكن من نوعه، فهو قائم على التصديق بالخبر الذي ثبتت صحته بالعقل، فالإيمان بالغيب ركن من أركان الإيمان الكلي.

النوع الثالث: الإيمان التعبدي

الإيمان التعبدي هو القسم الثالث في تكون الإيمان الكلي عند المسلم، فبعد إيمان المسلم فكرياً بالشهادتين وقيم الإيمان الفكرية ومنها الإيمان بالغيب، فإنه يجد أن من واجبه عقلاً أن يشكر خالقه الذي أنعم عليه بالوجود بشراً مكرماً، ومخلوقاً قارئاً، وإنساناً متعلماً، هذه النعم وغيرها كثير توجب على الإنسان شكر الخالق سبحانه وتعالى، وحتى لا يجتهد الإنسان في طريقة شكر الخالق فيخطئها، جاءت العناية الربانية تعلم الإنسان كيفية شكر الخالق وحمده في كثير من نصوص القرآن الكريم وبيان النبي عليه الصلاة والسلام، فكانت هذه الأحكام التي تبين للمسلم حقوق الله تبارك وتعالى عليه هي من قيم الإيمان التعبدي، لأن المسلم لا يقوم بها إلا بعد أن يصدق بها وبوجوبها عليه.

الإيمان التعبدي هو التصديق بالعلم الذي يعلم العبادة الصحيحة لله تبارك وتعالى والاطمئنان بها، في الصلاة والصوم والحج والدعاء والشكر والرجاء والخوف والخشية والتوكل والمحبة والإخلاص والطهارة وغيرها، وقد تحدثت عن الإيمان التعبدي الكثير من الآيات القرآنية، منها قول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾، وقول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ ...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴿١٤٣﴾ ﴾، أي صلاتكم، وقوله تعالى في سورة النساء المدنية: ﴿ ...إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾، وحديث النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال سألت النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله قال: (الصلاة على ميقاتها). قلت: ثم أي؟ قال: (ثم بر الوالدين). قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). فسكت عن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني)[1].

الإيمان التعبدي باب كبير من أبواب زيادة الإيمان وزيادة الاطمئنان، وهي مبنية على الإيمان الفكري والإيمان بالغيب الديني معاً، فهي مبنية على الإيمان الفكري من الناحية المعرفية التي توجب على الإنسان شكر من خلقه وأنعم عليه، وهي مبنية على الإيمان بالغيب لأنَّ المسلم يرجو في صلاته وعبادته لله تعالى حسن الأجر في الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ولذا كانت الصلاة في بعدها الفردي من أهم مكونات شخصية المؤمن، لأنها أكبر دليل علمي وعملي على صدق إيمانه، وهي شهادة له في الدنيا على إيمانه وصلاحه وسعيه لزيادة إيمانه في المواظبة على أدائها على أوقاتها وفي أحسن كيفياتها، وبالأخص أداءها في صلاة الجماعة وفي بيوت الله ومساجده المعظمة.

النوع الرابع: الإيمان الأخلاقي

الأخلاق قيمة إنسانية عظيمة، يتمسك بها البشر إما لذاتها أو لنفعها لهم، بينما هي في الدين الإسلامي قسم من أقسام الإيمان، الذي لا يكتمل إيمان المسلم إلا بها، بدليل

(1) الجامع الصحيح، الإمام البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم (2782)، 3/ 263. وانظر: مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص 32.

السنة النبوية الشريفة ومنها قول النبي عليه الصلاة والسلام في مسند الإمام احمد بن حنبل قال: حدثنا ابن إدريس، قال: سمعت محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً، وخيارهم خيارهم لنسائهم)[1]، ورواية الحاكم في المستدرك دون الشطر الثاني في الرواية، وروايته: (أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً)[2]، فالسنة النبوية تجعل الأخلاق مكملة لإيمان المسلم، وهذا دليل على زيادة إيمان المسلم بها، ونقصانه بنقصان خلقه أيضاً، بل جُعلت في رواية أخرى مشاطرة للإيمان التعبدي في الصوم، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)[3].

لقد كان اهتمام القرآن الكريم بالإيمان الأخلاقي كبيراً، وإذا لم يتنبه البعض إلى ذلك فبسبب أن القرآن الكريم استعمل لفظ الأخلاق في صيغة الاسم أو الصفة، كما في قوله تعالى في سورة القلم المكية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، بينما استعمل في صيغة الفعل لفظاً آخر هو التزكية، فجاءت الكثير من الآيات القرآنية المكية تحض على التزكية النفسية، وحصيلتها أن يكون الإنسان المسلم متصفاً بالخلق العظيم، كما في قوله تعالى في سورة الأعلى المكية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾، وقوله تعالى في سورة الشمس المكية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، وقال تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾.

---

(1) المسند للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال: الحديث صحيح، وأخرجه ابن حبان (479)، والآجري في «الشريعة» ص 115. دون الشطر الثاني. ص 12/ 363.

(2) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ ـ 1990م، كتاب الإيمان، ص 1/ 43. قال محقق الكتاب: قال الذهبي في التلخيص: لم يتكلم عليه المؤلف وهو صحيح.

(3) سنن أبو داود، كتاب الأدب، حديث رقم (4798)، 4/ 439. وسنن الترمذي، حديث رقم (2003)، 4/ 363. وكتاب: بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لأبي بكر محمد بن أب إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري، تحقيق محمد حسن وأحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ ـ 1999م، ص 259.

فالتزكية للإنسان المسلم تتويج له في إيمانه الفكري والديني والتعبدي، والتزكية منهج معرفي قرآني، ومعنى التزكية النماء والطهارة، وهي في الأصل من الأمور المعرفية والمعنوية التي حث عليها الإسلام، لأن نماء الإيمان يؤدي إلى نماء الخلق الحسن، وفعل التزكية غير فعل إيتاء الزكاة فالأولى معنوية خلقية، والثانية مادية اقتصادية، والأولى أصل إيماني للإيمان الثاني، أي إنَّ الإيمان الأخلاقي أصل للإيمان الاقتصادي في إيتاء الزكاة المالية لمستحقيها الشرعيين، ولذلك حثت السور المكية الأولى على التزكية المعنوية التي هي الإيمان الأخلاقي، تأسيساً للزكاة المادية المالية التي تبني المجتمع وتقيم الدولة.

وفي قوله تعالى من سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾، دليل على أن التزكية وتعليم الأخلاق الحميدة كانت تسبق تعليم الكتاب، أي ما فرضه الله على عباده، وأنها كانت تسبق تعليم الحكمة أي تعليم ما حرمه الله على عباده، وفي ذلك بيان لمنهج معرفي قرآني، يؤسس للعديد من أقسام الإيمان وشعبه على أساس الإيمان الأخلاقي الفردي.

التزكية هي فلسفة الإسلام الأخلاقية، وهي دعوة إلى الإيمان الأخلاقي عن طريق الدعوة إلى التصديق بالعلم الذي يحفظ الإنسان في أحسن تقويم خلقة وخلقاً والاطمئنان به، ومن نتائجها العلمية والعملية أن تجعل الإنسان المسلم مساوياً لأخيه الإنسان، يجمعهما وحدة الجنس البشري إخوة في أسرة واحدة، يُؤْثِر كل واحد منهما أخاه على نفسه، فالإيمان الأخلاقي تصديق بالعلم الذي يزكي النفس الإنسانية، وبه يزيد المؤمن إيماناً بل ويجعله من أكملهم إيماناً كما جاء في الأحاديث السابقة.

ومن الإيمان الأخلاقي ما حثت عليه السنة النبوية في آداب الحديث والأطعمة والأشربة كما فصلتها كتب السنة النبوية وكتب الفقه الإسلامي، وهي علم السلوك والتهذيب، أو في الأدب المفرد، أو في آداب السلوك والحديث واللباس واللقاءات الخاصة والعامة، أو في زيارة المساجد وآداب العبادة فيها، واحترام الكبير والصغير وغيرها، فهذه الآداب السلوكية منبثقة عن تصديق وإيمان في علم الأخلاق، فهو العلم

الذي ينبغي على المسلم المؤمن العمل بمقتضاه في العلاقات الشخصية والاجتماعية العامة، ولذا كان نهي الإسلام عن سوء الخلق كما لو كان نهياً عن الكفر بالدين كما في قوله تعالى في سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

بهذه الأنواع الإيمانية الأربعة الفكرية والغيبية الدينية والتعبدية والأخلاقية تكتمل دائرة الإيمان الفردي الخاصة، وقد كان تفصيل ذلك في الحديث الذي سبق ذكره وهو حديث وفد عبد القيس وقد سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»، وهذا إيمان فكري، ثم في قوله عليه الصلاة والسلام: «وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا خمساً من المغنم»، فهذا إيمان تعبدي، وفي أحاديث أخرى قول النبي عليه الصلاة والسلام: «الحياء شعبة من الإيمان»، وقوله: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»، فهذا إيمان أخلاقي، وفي كل نوع من هذه الأنواع أحكام وفرائض وسنن كما جاء في أثر عمر بن عبد العزيز السابق ذكره، كلها تحتاج إلى قراءة وتعلم من المسلم الذي قبل الإسلام له ديناً وأسلم وجهه لله تبارك وتعالى.

النوع الخامس: الإيمان الاجتماعي

في الأقسام الإيمانية الأربعة السابقة تكتمل دائرة الإيمان الفردي، والتي يحتاجها المسلم أو يكونها في حياته الخاصة، فالمسلم في الحياة الفردية الخاصة يحتاج إلى الإيمان الفكري، الذي يشكل عقله وقناعته وهويته الفكرية الخاصة، ويحتاج إلى الإيمان بالغيب الديني لتكوين شخصية آمنة على مستقبلها ومسؤولة عن سلوكها وأعمالها، ويحتاج إلى الإيمان التعبدي الذي يؤدي به شكره لخالقه والمنعم عليه بالوجود والعلم، ويحتاج إلى الإيمان الأخلاقي الذي يكمل به دائرة الإيمان الخاصة، ويجعله يشعر بالاحترام لنفسه ولغيره، فهذه الأقسام الإيمانية الأربعة يبنيها المسلم بنفسه ولنفسه ولو كان فرداً في مجتمع غير إسلامي، كما لو كان يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية أو في غيرها دون أن يكون معه أحد من المسلمين أو مع غيره من أفراد المسلمين ولكن في وجود فردي دون أن

يشكل معهم مجتمعاً مسلماً بعلاقاته وقيمه، فالمسلم في هذه الحالة الفردية تكتمل دائرة إسلامه ولإيمانه واطمئنانه على فكره وعقله وثقافته في دنياه، ويكون آمناً في آخرته ما دام ملتزماً بأحكام هذه الأقسام الإيمانية الأربعة.

أما إذا كان المسلم فرداً في مجتمع مسلم غالبيته من المسلمين، أو يسعى إلى تكوين مجتمع مسلم يزداد عدد إسلام الأفراد فيه بحيث يشكلون من مجموعهم مجتمعاً مسلماً بغض النظر عن العدد طالما هم غالبية فيه، فإنه يحتاج إلى المزيد من أنواع الإيمان التي يزيد بها إيمانه إيماناً، وهذه الأنواع الجديدة هي الأنواع التي تنظم حياة الفرد المسلم مع إخوانه المسلمين في تكوين مجتمعهم وأمتهم بحسب أحكام الإسلام وأحكام الإيمان، فهي غير محصورة بعدد معين ولكن يمكن تقريرها في الأقسام الرئيسية في حياة الناس في حياتهم الدنيوية، والتي توصف بالأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فالإسلام ينظم الواقع العملي للناس ولا يفرض عليهم أنظمة من خارج حاجتهم وحياتهم.

الإيمان الجديد الذي نتحدث عنه بعد الأنواع الإيمانية الأربعة السابق ذكرها، هو الإيمان الذي ينظم المجتمع المسلم ويكونه، أي الإيمان الاجتماعي المنظم، وتكوين الأمة المسلمة المؤمنة، حيث إن أحكام الإيمان في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عمدت إلى تنظيم هذه الحياة الاجتماعية علمياً وعملياً، علمياً من خلال النصوص الإسلامية التي نزلت في القرآن الكريم تنظم حياة المسلمين الجماعية، وجعلها تسعى في تكوين أمة واحدة متميزة، والتي امتازت بأن فيها خطاباً جماعيّاً للناس، كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، أو في الأحكام التي يقوم بها عدد من الناس في علاقاتهم الاجتماعية مثل الزواج وتكوين الأسرة وتكوين العشيرة والقبيلة والقرية وغيرها، فهذه الأحكام جاءت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية كأحكام إيمانية اجتماعية، وقد نزلت في الفترة المتزامنة مع أواخر العهد المكي والتي نصفها بالمرحلة اليثربية كما سبق بيانه، حيث كان المجتمع المسلم يتشكل في يثرب قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها، من خلال الوفود العلمية التي أرسلت إلى يثرب، والتي كانت من أهل يثرب في اللقاء الأول مع النبي عليه الصلاة والسلام ثم في بيعة العقبة الأولى

والثانية، ومن طلائع المهاجرين من مكة، فهؤلاء كونوا نواة المجتمع المسلم قبل أن تعلن الدولة الإسلامية باسم المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية إليها.

وهكذا يشكل الإيمان الاجتماعي مرحلة وسيطة بين أنواع الإيمان الفردي الأربعة: الفكرية والغيبية الدينية والتعبدية والأخلاقية مع الأنواع الجديدة التي تنظم المجتمع في تنظيم أطلق عليه القرآن الكريم اسمَ الأمة، فالإيمان الاجتماعي تصديق معرفي علمي يزيد المؤمنين إيماناً أثناء تشكيلهم للمجتمع المسلم المؤمن، وأثناء تكوينهم للأمة المسلمة المؤمنة، والإيمان الاجتماعي هو الذي ينقل المسلم من مستوى الإيمان الفردي الخاص إلى مستوى الإيمان الاجتماعي، أي من مستوى المسلم الفرد إلى مستوى الأمة المسلمة، وهو الذي ينظم حياة المسلمين بأحكامه وشريعته.

وبما أن الإيمان الاجتماعي وسيط بين مرحلتين تكوينيتين هما الحياة الفردية الخاصة والحياة الاجتماعية العامة، فإن المسلم مطالب أن يؤمن بكل أحكام الإيمان التي جاء بها الإسلام لينظم بها مجتمع المسلمين، وبقدر علمه وتصديقه وعمله بها يزيد إيمانه وينقص، فلا يكفي أن يعتبر المسلم نفسه مؤمناً بأحكام هذا المجتمع، بل لا بد أن يتعلمها ويتفكر بها عقلياً وعلمياً ومقاصدياً حتى يزاد بها إيمانه حقاً، وحتى ينتفع به المجتمع المسلم في انتظامه العلمي والثقافي مع إخوانه من المسلمين، فالإيمان الاجتماعي إيمان لا يتوقف على المستوى الفردي بل لا بد فيه من المشاركة الإيمانية لكل مواطن في المجتمع المسلم، وبالقدر الذي يستطيعه، وبهذا القدر الذي يشارك به مجتمعه يكون مستوى إيمانه الاجتماعي، وبنفس هذا القدر يكون الانتماء الحقيقي للأمة المسلمة.

الإيمان الاجتماعي هو التصديق المعرفي بالعلم الذي ينظم شؤون الأمة ويحقق لها الأمن والأمان، ويبعد عنها الخوف والإجرام، مثل نشر قيم الأخوة والمحبة والمودة بين الناس، وإعلاء قيمة العلم والدعوة له بين الناس، والدعوة إلى الأعمال الصالحة في المأكل والمسكن والزواج والتكاثر والصحة والملبس، التي تعود بالنفع على المجتمع كله، والتعاون والتضامن والتكافل وإصلاح ذات البين، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن العلاقات الاجتماعية كثيرة جداً، منها في الأسرة المصغرة بين الأزواج

والآباء والأبناء وذوي القربى وصلة الأرحام، ومنها المتعلقة بأهل الحي الواحد في التعاون على البر والتقوى ورعاية الفقراء والمساكين، وإقامة العلاقات الاجتماعية التي تؤمن للمجتمع المسلم المؤمن الحياة على هدى وصراط مستقيم.

ومن هذه الآيات قول الله تعالى في سورة الماعون المكية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾، وقوله تعالى في سورة النساء المدنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام كما في صحيح مسلم عن عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: (أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ).

ويدخل في الإيمان الاجتماعي كل العلوم والأحكام المنظمة لشؤون المجتمع، مثل تنظيم الأسرة والحي والعشيرة والبلد، في الحقوق والواجبات الإنسانية وحقوق الجيران وذوي القربى، ومنها أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام في طاعة الوالدين وحقوق الأزواج وحقوق الأبناء وحقوق الجيران مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه)، فجعل رسول الله ﷺ حقوق الجار وحمايته من أصول الإيمان، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بإطعام الطعام وإفشاء السلام من اجل نشر الألفة والمحبة بين الناس، فكل علم ينفع المجتمع ويُحقق له الصلاح، فإن التصديق به والعمل بمقتضاه هو من الإيمان الاجتماعي الذي دعا إليه الإسلام.

ومن أصول الإيمان الاجتماعي احترام العلم والعلماء ومحبتهم، واحترام مجالسهم العلمية وتوقيرها، والعمل بآداب العلم والتعلم، فاحترام العلماء فيه صلاح المجتمع، وهذا من معاني قول النبي عليه الصلاة والسلام: (صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس، الأمراء والعلماء)، وكما أن الأمراء أولوا أمر الدول فإن العلماء في الحقيقة هم أولوا

أمر المجتمع، الذين يهتدي المجتمع المسلم بعلمهم ويأخذ باجتهادهم ويعمل بإجماعهم، فبناء المجتمع الحديث لا يتم من غير علماء يقومون فيه على تعليم الأبناء العلم الصحيح وتربيتهم وتهذيبهم، ولذلك جاء في الحديث: (العلماء ورثة الأنبياء).

وحيثما دعا الإسلام إلى الإيمان الاجتماعي فإنما يدعو إلى العلم أولاً، وإلى التنظيم الجماعي، أي تكوين الأمة ثانياً، وإلى الأمن الاجتماعي ثالثاً، فالمجتمع المسلم آمن وطاهر ومصون، فكل مواطن فيه آمن على نفسه وأهله من أي اعتداء، فالإيمان الاجتماعي علم منظم لعلاقات المسلمين مع بعضهم بعضاً أولاً، ومع غيرهم من الناس ثانياً، فإذا لم يتمكن المؤمنون من تنظيم حياتهم بأحكام الإيمان الاجتماعي فإن حياتهم ستفتقد الصلاح أولاً، وستفتقد الأمان ثانياً، وكلاهما مؤشر على ضعف الإيمان في المجتمع، ونقصه عند أفراده أيضاً، فالأمن والأمان هما معيار صلاح الإيمان الاجتماعي، ومعيار قوة الأمة وضعفها، لأن من معاني الإيمان الأمن و الأمان كما سبق بيانه في معناه اللغوي.

ولذا فإن من مقاصد الإيمان الاجتماعي أن يحقق للمجتمع المسلم الأمن والأمان فعلاً، ولكل أفراده دون استثناء، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، مواطنين أو أجانب، وإذا لم يتحقق الأمن والأمان لكل مواطن فإن ذلك مؤشر على ضعف الإيمان الاجتماعي في المجتمع كله، ودلالة على نقص الإيمان الاجتماعي عند أفراد المؤمنين في ذلك المجتمع، لأن كل واحد منهم عضو كامل العضوية في الأمة، وله حق المشاركة في تفعيل الإيمان الاجتماعي، وله حق المساءلة عن كل ضعف يتعرض له المجتمع المسلم، وكل ضعف يحل بالأمة الإسلامية، سواء كان ضعفاً أخلاقياً أو مادياً، أو دعوة إلى قيم غريبة فاسدة، أو دعوة إلى فواحش اجتماعية، فالإيمان الاجتماعي مسؤوليّة جماعية ينظم الحياة العامة علمياً، ويقوم به كل فرد من أفراد المجتمع، الإيمان الاجتماعي هو عقل الأمة وهويتها، كما أن الإيمان الفكري هو عقل كل مسلم ومؤمن.

النوع السادس: الإيمان الاقتصادي

لا يتوقف تنظيم الحياة العامة على الإيمان الاجتماعي، ولا يتوقف صلاحها على الإيمان الاجتماعي فقط، بل لا بد من مزيد من مقومات الحياة الجماعية، ومن أهمها

وأكثرها تأثيراً المال، الذي جعل الله به قوام الناس مادياً، وتداول المال في المجتمع يحتاج إلى علم مالي وقيم اقتصادية، وهو ما نطلق عليه الإيمان الاقتصادي، بل إن المال قادر على دعم الإيمان الاجتماعي بقوة قد لا تمتلكها الأنفس، وما قيل في الإيمان الاجتماعي يقال في الإيمان الاقتصادي، فهو أولاً مرحلة وسيطة بين الإيمان الفردي والإيمان السياسي، الذي ينظم حياة المؤمنين السياسية، وهو مستوى علميّ يزداد إيمان المؤمن به ثانياً، بل ويزداد به إيمان المجتمع كله أيضاً.

الإيمان الاقتصادي هو التصديق المعرفي بالعلم الذي يؤمن المجتمع المسلم بالقوانين الاقتصادية الصحيحة والاطمئنان بها والعمل بمقتضاها، ومنها الآيات التي حثت على الصدقة وإنفاق المال طواعية في سبل الخير، والتي جعلها الله سبحانه وتعالى طهارة للمال وصاحبه[1]، والوفاء بالكيل والميزان لقوله تعالى في سورة الإسراء المكية: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾، ومنها الآيات التي تحض على الإنفاق في السراء والضراء مثل قوله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾، ومنها الآيات التي أمرت بأخذ المال من الأغنياء ورده إلى الفقراء، مثل الزكاة لقوله تعالى في سورة البينة المدنية: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾، وقوله تعالى من سورة التوبة: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ومن السنة النبوية حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم

(1) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، شيخ الإسلام ابن القيم الجوزية، 1/ 306.

وليلة. فإن أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم. فإن هم أجابوك إلى ذلك فإياك وكرائم أموالهم، وإياك ودعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[1].

فالإيمان الاقتصادي هو التصديق المعرفي بالعلم الذي يبين مفهوم المال في الإسلام وكيفية تنظيمه للحياة الاقتصادية بين المؤمنين، ويبين سبل انتقاله بطرق اقتصادية سليمة، تحفظ الحقوق والمكاسب والأرباح للجميع، وبقدر إيمان الفرد المسلم به وتصديقه له وقناعته به وعمله بمقتضاه يزداد إيمانه علمياً وعملياً، فلا يكفي قول المسلم المؤمن بالإيمان به دون علم بأحكامه وقناعته بوجوب تطبيقها على نفسه وعلى مجتمعه، إذ بذلك يزداد إيمانه إيماناً، وبتركه له مع تصديقه العقدي له ينقص إيمانه بقدر تركه أو تساهله به، مع الخشية من سوء العاقبة، فالإيمان الاقتصادي لم ينزل في آيات قرآنية تتلى في القرآن الكريم، ولم يأت بيانه في السنة النبوية العلمية والعملية إلا لينظم حياة المسلمين في مجتمعهم الإسلامي، ولذا جاءت أحكامه في آيات قرآنية إيمانية كما سبق ذكر بعضها وبيانه، فحيثما يدعو الإسلام إلى الإيمان الاقتصادي فإنما يدعو إلى الأمن والأمان الاقتصادي، في توفر المال والعمل والكسب الحلال النافع لجميع المواطنين من المسلمين وغيرهم.

النوع السابع: الإيمان السياسي

الإيمان السياسي هو أعلى مراتب الإيمان ومستوياته، فهو قمة الزيادة في الإيمان لكل مؤمن، لأنه يعبر عن أعلى مستوى من تنظيم وظيفة الأمة المسلمة في الوجود، وفي تنظيم أحوال الناس في كل مجالات حياتهم العامة، الإيمان السياسي هو التصديق المعرفي بالعلم الذي يضبط علاقات المؤمنين للقيام على أمور الناس بالعدل، ويحدد واجبات الأمة المسلمة نحو الناس كافة، ويحفظ حقوق الإنسان والناس كافة وفي كل الميادين وبالأخص الحكم والقضاء ونصرة المظلوم، وذلك بالنظر إلى حقوق الناس على أنها

---

(1) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب الإيمان، وانظر: مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص 34 و35.

أمانات يجب المحافظة عليها، وهو يبين حقوق المؤمنين نحو بعضهم بعضاً في تداول الآراء والسلطة بالشورى، وتحقيق المشاركة السياسية في الحكم، وأن الطاعة في المعروف، وأن الدعوة إلى الخير، وتمكين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحض على الجهاد والقتال في سبيل الله، والتعاون على كل عمل فيه صلاح للناس، والمحافظة على وحدة المسلمين السياسية في أمة وجماعة ودولة واحدة، وغيرها.

وقد بينت هذه الحقوق السياسية العديد من الآيات القرآنية منها قول الله تعالى في سورة الشورى المكية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾، وقوله تعالى من سورة النساء المدنية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾، وهذه الآية من سورة النساء وصفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بآية الأمراء في كتاب لله[1]، ثم قال: «نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك، في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك إلا أن يؤمروا بمعصية الله، فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وإن لم تفعل ولاة الأمور ذلك، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)، وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة»[2].

---

(1) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ص 4.

(2) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ص 5.

وحيثما دعا الإسلام إلى الإيمان السياسي فإن الغاية تنظيم الأمة المسلمة بعقد سياسي، أساسُهُ الإيمان الفكري بالله الواحد الأحد، والإيمان الفكري بالرسول والرسالة، والإيمان الفكري باليوم الآخر، وتأكيده بالإيمان التعبدي، وتزكيته بالإيمان الأخلاقي، في زيادات مضطردة في الإيمان الفردي قبل أن يبلغ مستوى الإيمان الاجتماعي وإعلان الهوية الجامعة باسم الأمة، ومواصلة زيادته بالإيمان الاقتصادي، وتتويجه بالإيمان الأعلى للأمة الأعلى في علاقاتها السياسية مع الدول الأخرى.

فهذه الأنواع الإيمانية مشتركة في إيمان الفرد وإيمان المجتمع وإيمان الدولة، وتصنيفها إلى أنواع هو بحسب مراتبها في الوجود العلمي والعملي في حياة الإنسان والناس معاً، فالأصل الأول هو للإيمان الفكري الذي لا يمكن أن يوجد الإيمان الحق إلا على أساسه، فهو يشكل أساس البناء الإيماني كله، الفردي والجماعي، ومن ثم يؤسس إلى الإيمان الغيبي الديني، الذي جوهره الإيمان باليوم الآخر، يوم الجزاء والحساب، فهو أصل لا يقل أهمية عن الإيمان الفكري، بل هو في مستواه، والتفريق بينهما معرفي كما سبق بيانه، أما الإيمان التعبدي فهو مصداق ما قبله من إيمان فكري وغيبي، ولا يقتصر دوره على الإيمان الفردي وإنما يتعداه إلى الإيمان الاجتماعي، في صلوات الجمع والجماعة وكل عبادة جماعية، معنوية أو مادية، وكلما تقرب العبد إلى الله تعالى بإيمانه التعبدي كلما زاد إيماناً، وكذلك كلما زاد في إيمانه الأخلاقي زاد إيماناً، وهو في حياته الخاصة أو وهو في حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فلا يتوقف أمر الإيمان الأخلاقي على الحياة الخاصة، وإنما يتعداها إلى كل نوع إيماني يبنى عليه من أنواع الإيمان التي تليه، فدرجات الإيمان هي بحسب مراتبها، دون الحاجة إلى التفريق بينها في حياة المسلمين العامة، وإنما لما فيها من بيان وتفصيل ومنهج معرفي في تعلم أحكام كل نوع حتى تكتمل دائرة الإيمان عند المسلم وهو على بينة من معنى زيادته لإيمانه، أو وقوعه في النقص من حيث لا يعلم.

فالتفصيل من أجل البيان والتعلم، ومن أجل بيان منهج تكوين الإيمان الكامل وليس للتفريق بينها، ومن أجل بيان كيفية بناء مجتمع إسلامي إيماني في جميع جوانبه الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، دون التفريق بينها أيضاً، أو الإيمان بجانب

تعبدي أو أخلاقي وإنكار جوانب أخرى اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، فلا يقبل الله إيماناً دون إيمان، ولا يقبل الإيمان ببعض والكفر ببعض، كما قال تعالى في سورة النساء المدنية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾، والمؤمنون الصادقون هم الذين يجمعون كل أنواع الإيمان في نفوسهم ومجتمعهم وسياستهم ودولتهم.

الفصل الثالث:

مفهوم الكفر وأوجهه
في اللغة العربية والقرآن الكريم

كلمة الكفر من ألفاظ اللغة العربية التي كان اللسان العربي يعرفها ويستعملها قبل نزول القرآن الكريم، ولما نزل القرآن الكريم أضاف لهذه الكلمة معانيَ جديدة، كما أضاف كثيراً من المعاني لكلمات أخرى، كما أوجد تعبيرات بيانية متميزة في أسلوبه[1]، في كل المجالات المعرفية والفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وميزته القوية في ذلك أنه وهو يضيف معانيَ جديدة لأي كلمة عربية لا يلغي ولا يبطل المعاني اللغوية الأصلية للكلمة في اللسان العربي، بل ويحفظ استعمالها اللغوي والقرآني في آن واحد ودون أن يعرضها إلى التغيير أو التبديل، «لأن الله ما غير اللسان العربي ولا قلبه»[2]، بل أرسل الرسل بألسنة أقوامهم كما قال في سورة إبراهيم المكية: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾.

هذه ميزة بيانية عظيمة للقرآن الكريم قابلة أن تكون في عداد الأدلة على أن القرآن كلام الله تبارك وتعالى العليم الحكيم، وفائدة هذه الميزة أن تحافظ أي دراسة علمية على حضور المعنى اللساني واللغوي عند دراسة أي مسألة إسلامية، أو عند بحث أي كلمة قرآنية سواء في دراسة موضوعية أو فهم قضية مهمة من قضاياه، ومن أهم القضايا التي تحتاج إلى بحث ودراسة في هذا العصر بعد دراسة مفهوم الإسلام والإيمان دراسة مفهوم كلمة الكفر في الإسلام، ومعرفة ماذا يقصد الإسلام

---

(1) انظر: التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، الطبعة الثانية، 1422هـ ـ 2002م، ص 9 و 22.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، كتاب الإيمان، ص 7/ 121.

بهذه الكلمة، ومتى وكيف تم استعمالها، أي معرفة الأسس الإسلامية في إطلاق وصف الكفر على بعض الفئات، «إذ أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق»[1].

وتزداد الحاجة إلى دراسة وجهة النظر الإسلامية في «مسألة التكفير» إثر تزايد الدعوات الإسلامية إلى نبذ ما اصطلح على وصفه «الفكر التكفيري»، أي التكفير الداخلي بين المذاهب الإسلامية التراثية أو المعاصرة[2]، ظناً منها أن التكفير الداخلي هو السبب في وقوع الصراع والقتال وسفك الدماء بين المسلمين، لذا تزداد الحاجة اليوم إلى دراسة مفهوم التكفير في الثقافة الإسلامية المعاصرة، وبالأخص عند دراسة مفهوم الجهاد في الإسلام، لأن مفهوم الجهاد في الإسلام ارتبط بمفهوم الكفر ارتباطاً وثيقاً، بل لا نرى إمكانية دراسة مفهوم الجهاد في الإسلام ما لم يتحدد مفهوم الكفر في الإسلام، أي ما لم تتم دراسة مسألة التكفير في الإسلام، فقد اعتبر عدد من العلماء ـ باجتهادهم ـ أن الكفر هو علة الجهاد والقتال في الإسلام[3]، فما هو الكفر الذي يكون علة للجهاد والقتال في الإسلام؟

إن أي باحث في مسألة التكفير مطالب أن يتبين ويتفحص الفروق العلمية بين استعمال اللسان العربي لكلمة الكفر والاستعمال القرآني لها، ومعرفة متى يستعمل القرآن كلمة الكفر بالمعنى اللغوي كاملاً؟ ومتى يستعملها بالمعنى الاصطلاحي لها؟ وإذا كان الأصل أن يكون المقصود بالمعنى الاصطلاحي المعنى المستفاد من القرآن

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 395.

(2) انظر: البيان الختامي لمؤتمر القمة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، الدورة الاستثنائية الثالثة للمؤتمر الإسلامي، الذي عقد في مكة المكرمة بين 5 ـ 6 ذي القعدة 1426هـ الموافق 7 ـ 8/ كانون الأول ديسمبر 2005م.

(3) انظر: المغني لابن قدامة، مكتبة الرياض الحديثة، 8/ 362. وكتاب: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثامنة، 1406هـ ـ 1986م، 1/ 385. وكتاب: الجهاد في الإسلام، كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ ـ 1993م، ص 94.

الكريم والسنة النبوية فقط، ولكن ومن الناحية الواقعية يتشكل المعنى الاصطلاحي مما يفرضه التداول المعرفي والفقهي للكلمة في عصر من العصور، مما يؤثر كثيراً على المعنى الاصطلاحي التاريخي من ثبات أو جمود أو حركة أو فاعلية في العصور اللاحقة.

إن كلمة الكفر في اللسان العربي واللغة العربية خير مثال على ذلك، فقد غلب المعنى التاريخي للكلمة على المعنى اللغوي وعلى المعنى القرآني الاصطلاحي لها، وسبب هذه الغلبة أن الثقافة الإسلامية دونت في عصر الانتصارات الإسلامية الفكرية والحضارية والعسكرية، أي في مرحلة العلو الدولي، مما جعل المعنى المستعمل في ذلك العصر هو المعنى التداولي الغالب، لأنه الأكثر تداولاً بين المسلمين في ذلك العصر وبعده، فقد انتشر المعنى التداولي في كتب التفسير والفقه والتاريخ منذ عصر التدوين في القرن الثالث الهجري وبعده، وهذا أوجد بدوره معنى تراثياً ثابتاً لكلمة الكفر، ودون أن يكون هذا المعنى مطابقاً بالضرورة للمعاني القرآنية التي لا يحدها زمان ولا يقيدها مكان، ودون أن يكون متحركاً مع المعاني اللسانية واللغوية لهذه الكلمة أيضاً، وقد ساعد على ثبوت هذا المعنى لكلمة الكفر في التراث، استعماله من قبل المذاهب الإسلامية على هذا المعنى التراثي فقط، فالمذاهب أدخلت المعنى التراثي مجال التداول دون غيره، وتم الإغلاق على هذا المعنى التراثي مع إغلاق باب الاجتهاد على مذاهب فقهية معدودة.

ومن أجل تجديد تفعيل كلمة الكفر على المعاني اللسانية واللغوية والقرآنية نحتاج إلى بيان هذه المعاني اللسانية واللغوية والقرآنية الأصيلة، وتحريرها من المعاني التاريخية المذهبية المغلقة، هذا التجديد ـ شأنه شأن كل تجديد ـ ليس سهلاً، ولا بد أن يواجه بالصعوبات العديدة، حتى لو كان يعمل إلى إعادة الكلمة إلى مجالها اللساني واللغوي والقرآني، أي حتى وإن كان مصيباً في بيانه وإجرائه، وبالأخص إذا أراد توظيفها في خدمة الثقافة الإسلامية المعاصرة، على أساس المعنى الأصلي لها لسانياً وقرآنياً.

وقد اخترنا بعد دراسة المعنى اللغوي لهذه الكلمة في المعاجم اللغوية، دراسة معناها في كتب علوم القرآن الكريم وكتب التفسير والسنة وغيرها، لنبين أن تعدد الأوجه في المعاني وحرية حركتها المعنوية هو مما عرفته الدراسات اللغوية لكثير من كلمات القرآن الكريم، وأنه مما اهتم به علماء المسلمين الأوائل بحسب ثقافتهم وعلومهم وعصورهم، ومن أجل الوصول إلى المعنى الراجح في المسألة المبحوثة عند هذا المؤلف أو ذاك، مثل كتب مفردات ألفاظ القرآن الكريم، وكتب غريب القرآن وكتب الوجوه والنظائر وغيرها.

المبحث الأول: المعنى اللغوي لكلمة الكفر

تمتاز بعض المعاجم اللغوية أنها تبدأ بتحليل جذر الكلمة المبحوثة إلى الجذر الثلاثي، ومعرفة معناه في أصل الاستعمال في اللسان العربي، ثم تنظر في استعمالات الكلمة في اللغة والشعر والأمثال، وتنظر في معناها المستعمل في القرآن الكريم لغة واصطلاحاً، أي في المعنى الشرعي المستعمل في القرآن الكريم، ونرى أن هذا المنهج هو الأفضل وهو ما يأخذ به علامة اللغة أحمد بن فارس في كتابيه: معجم مقاييس اللغة ومجمل اللغة وغيرها، بينما من المعاجم اللغوية ما تبدأ بالمعنى القرآني للكلمة وتنظر في المعاني الأخرى ومنها المعاني اللغوية والشعرية والأمثال أو تدمج بينها، ومنها معجم لسان العرب لابن منظور وغيره، وسوف نبدأ في المنهج الأول لبيان ذلك.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (كفر: الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، **وهو الستر والتغطية.** يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كَفَر دِرعَه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه... ويقال: الكافر: البحر،... والنهر العظيم كافر، تشبيه بالبحر، ويقال للزارع كافر، لأنه يغطي الحب بالتراب، قال الله تعالى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، ورماد مكفور: سَفَت الريح التراب عليه حتى غطته... **والكُفْر: ضد الإيمان،** سمي لأنه تغطية الحق، وكذلك كفران النعمة، جحودها وسترها... والكفر من الأرض: ما بعد من الناس، لا يكاد ينزله ولا يمر به أحد، ومن حل به فهم من أهل الكفور، ويقال: بل الكفور: القُرى، جاء في الحديث: «لتخرجنكم الروم منها كفراً كفراً»)[1].

نلاحظ أن معنى كلمة الكفر في المعنى الاصطلاحي عند ابن فارس هو ضد الإيمان، وقد عرفه بعد دراسة الجذر الثلاثي لكلمة الكفر، وعلل تسميته بذلك لأنه تغطية للحق، والحق هو العلم الصادق المبين، أي إنَّه علل المعنى الشرعي الاصطلاحي بالمعنى

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 930.

اللغوي لأنه هو الأصل، بينما سنجد المعنى الاصطلاحي هو ما بدأ به ابن منظور كلامه في لسان العرب فقال:

كفر: الكُفْرُ: **نقيض الإيمان**؛ آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت؛ كفر بالله يكفر كفراً وكفوراً وكفراناً. ويقال لأهل دار الحرب: قد كفروا أي عصوا وامتنعوا.

والكفر: **كفر بالنعمة**، وهو نقيض الشكر. والكفر: جحود النعمة، وهو ضد الشكر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَفِرُونَ﴾ [القصص: 48]؛ أي جاحدون. وكفر نعمة الله يكفرها كفوراً وكفراناً وكفراً بها: جحدها وسترها. وكافره حقه: جحده. ورجل مكفر: **مجحود النعمة مع إحسانِهِ**. ورجل كافر: جاحد لأنعم الله، **مشتق من الستر**، وقيل لأنَّه مغطى على قلبه. قال ابن دريد: (كأنه فاعل في معنى مفعول، والجمع كُفَّارٌ وكَفَرَة، وكفارٌ مثل جائع وجياع ونائم ونيام؛....)[1]، وبعد بيان طويل لمعنى كلمة الكفر بالمعنى الشرعي الإسلامي ينتقل ابن منظور إلى المعنى اللغوي وأصل معناه في اللغة، فيذكر معنى الكفر لغة، ثم ما يلبث أن يعود إلى المعنى الشرعي بين الفينة والأخرى، أي إنَّ المعنى الشرعي لكلمة الكفر هو الغالب على لسان العرب لابن منظور، حتى إن معجم لسان العرب لابن منظور يبدو معجماً كبيراً في معاني كلمات القرآن الكريم بالدرجة الأولى، فقال: (وأصل الكفر: تغطية الشيء تغطية تستهلكه، وقال الليث إنما سمي الكافر كافراً لأن الكفر غطى قلبه كله؛ قال الأزهري: ومعنى قول الليث هذا يحتاج إلى بيان يدل عليه **وإيضاحه أن الكفر في اللغة التغطية، والكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السلاح كافر، وهو الذي غطاه السلاح**، ومنه رجل كاس أي ذو كسوة، وماء دافق أي ذو دَفق.

قال: وفيه قول آخر أحسن مما ذهب إليه، وذلك أن الكافر لما دعاه الله إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة وأحبها له إذا أجابه إلى ما دعاه إليه، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله، أي مغطياً لها بإبائه حاجباً لها عنه، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «**ألا لا**

---

(1) لسان العرب، ابن منظور، ص 5/ 144.

تَرْجِعُنَّ بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1]، قال أبو منصور: في قوله كفَّاراً قولان: أحدهما لابسين السلاح متهيئين للقتال من كَفَرَ فوق دِرعِه إذا لبس فوقها ثوباً كأنَّهُ أراد بذلك النهي عن الحرب، والقول الثاني: أنه يُكَفِّرُ الناس فَيكْفُر...)[2].

وفي شرح الحديث ومعنى كلمة الكفر لغة قيمة علمية كبرى، يستحسن التوقف عندها والتفكر فيها، وبالأخص في بحث مفهوم الجهاد في الإسلام، وهو أن من معاني كلمة الكفار في صيغة اسم الفاعل: الذين لبسوا السلاح وتهيؤوا للقتال، وكأن كل متهيئين للقتال يطلق عليهم: كفّار، إذا لبسوا لباس الحرب وتغطوا به، ولباس الحرب هو لباس الخروج للسلب، وقد ذكر هذا المعنى الإمام ابن حجر في فتح الباري فقال: (ومنهم من جعله من لباس السلاح يقول كفر فوق درعه إذا لبس فوقها ثوباً)[3].

والحديث الشريف يحرم السلب والاستعداد له، فإذا جاء الطلب في القرآن الكريم بمقاتلة الكفار كما في قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، وجب معرفة معنى الكفر المقصود في هذه الآية، هل المقصود به الكفر بالمعنى اللغوي، أي اللابسين أسلحتهم لمقاتلة المسلمين، أم أن المقصود به المعنى الاصطلاحي التاريخي، أي غير المسلمين من الناس، فإذا أخذ بالمعنى الاصطلاحي التاريخي فكيف يوفق بينه وبين قوله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ..﴿٢٩﴾﴾، وقوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ..﴿٢٥٦﴾﴾، وهو ما سوف نبحثه في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

---

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب العلم باب الإنصات للعلماء، الحديث رقم (121)، وفي كتاب المغازي، باب حجة الوداع، الحديث رقم (6869)، وفي كتاب الفتن، رقم (7080)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، الحديث رقم (220 ـ 223)، وأخرجه النسائي، كتاب التحريم، الحديث رقم (4142)، وأخرجه ابن ماجة، كتاب الفتن (3942).

(2) لسان العرب، ابن منظور، ص 5/ 145.

(3) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة السلفية، بإشراف محب الدين الخطيب، رقم (7077)، 13/ 27.

ثم ذهب ابن منظور إلى إطلاق معنى كلمة الكفر في كل شيء فقال: (وكل من ستر شيئاً فقد كَفَرَهُ وكفرَّه. والكافر: الزرَّاعُ. وتقول العرب للزرَّاع كافر لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض المثارة إذا أمر عليها مالقه، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ...﴾ [الحديد: 20]، أي أعجب الزُّرَّاع، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو غاية ما يستحسن، والغيث المطر ههنا، وقد قيل: الكفار في هذه الآية الكفار بالله وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين....)[1].

وفي تفسير آية سورة الحديد بأن الكفار: هم الزراع فوائد علمية مهمة، ومنها أن المعنى اللغوي لم يفارق الآية بالرغم من أن الآية مدنية بحكم مناسبتها التنزيلية في سورة الحديد المدنية، أي إنَّ الآية احتفظت بالمعنى اللغوي لكلمة الكفر، وهو مما ذكره ابن قتيبة في كتابه غريب القرآن[2] وغيره[3]، بينما هذا المعنى قد لا يتبادر إلى الأذهان اليوم، بحكم رسوخ المعنى العقدي التاريخي لكلمة الكفر الذي هو ضد الإيمان، أو غير المسلمين فقط.

والمعاني اللغوية لكلمة الكفر وردت في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج البخاري ومسلم[4] من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**أريت النار فرأيت أكثر أهلها النساء بكفرهن» قيل أيكفرون بالله؟ قال: «يكفرن العشير ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**».

---

(1) لسان العرب، ابن منظور، ص 5/ 145.

(2) تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة 1398هـ - 1978م، ص 454.

(3) انظر كتاب: غريب القرآن، تصنيف أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، دمشق، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، 1416هـ - 1998م، ص 395. وكتاب: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق، الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحيثي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، 1397هـ - 1977م، ص 232.

(4) مسلم (907).

وقد وصف البخاري ذلك: **كفر دون كفر**[1]، ولعل الأرجح أن يقال: كفر غير كفر، لأن كفر العشير هو بالمعنى اللغوي حصراً، فهو وإن ترتب عليه بعض الإثم إلا أنه لا يصل بحال إلى مستوى الكفر الاصطلاحي، الذي هو محصور بإنكار وجود الخالق وحقوقه على عباده، وفي قول الكرماني شارح صحيح البخاري إشارة إلى ذلك: (أيكفرن بالله؟ هذا سؤال دليل على أن الكفر لفظ مجمل بين الكفر بالله والكفر الذي للعشير ونحوه إذ الاستفسار دليل الإجمال)[2].

(1) الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الإيمان، الحديث (29)، ص 1/ 15.

(2) كتاب: البخاري بشرح الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ثانية، 1401هـ ـ 1981م، كتاب الإيمان، ص 1/ 136.

المبحث الثاني: معنى كلمة الكفر في كتب علوم القرآن

اهتمت كتب علوم القرآن بمعرفة معاني كلمات القرآن الكريم ومفرداته كثيراً، سواء في دراسة معاني مفرداته وأصل استعمالها في اللغة والقرآن، أو في بيان تصاريف كلمات القرآن الكريم على وجوه كثيرة، أو في معرفة غريبها، أو في معرفة الألفاظ المشتركة أو المترادفة أو مجازاتها أو علوم الوجوه والنظائر القرآنية أو غيرها، ومن أوائل هذه الكتب كتاب التصاريف ليحيى بن سلام (124 ـ 200هـ/ 742ـ 815م)، فقد استقرأ وجوه استعمال كلمة الكفر في القرآن الكريم، كما استقرأ كلمة الهدى والإيمان والشرك وغيرها، فقال: (تفسير «الكفر» على أربعة وجوه:

الوجه الأول: الكفر يعني الكفر نفسه، يعني الكفر بتوحيد الله، والإنكار له، وذلك قوله في البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾. يقول: إن الذين كفروا بتوحيد الله، الذين يلقون الله بكفرهم. وقال في سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾، الهدى، يعني الإسلام، يعني كفروا بتوحيد الله. وفي الحج ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴿٢٥﴾﴾ كفروا بتوحيد الله.

والوجه الثاني: الكفر يعني الجحود، وذلك قوله في البقرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ..﴿٨٩﴾﴾ يعني جحدوا به وهم يعرفونه. وفي الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ..﴿٢٠﴾﴾، يعني يعرفون النبي عليه السلام لأن نعته عندهم في التوراة، قال: ﴿...ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لأنهم كفروا به بعد المعرفة. وقال في البقرة: ﴿...وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ الحق. وقال في سورة آل عمران: ﴿... وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾، يعني من كفر بالحج فجحد به من أهل الكتاب وأهل الأديان، فلم ير الحج واجباً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 97]، يعني أهل الكتاب وغيرهم.

والوجه الثالث: الكفر يعني كفر النعمة، وذلك قوله في البقرة: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾، ولا تكفروا نعمتي. وقال في النمل: ﴿...ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ..﴿٤٠﴾﴾ يعني أم أكفر النعمة. وفي لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ

وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، يعني ككفر النعمة. وقال فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء]، يعني الكافرين بنعمتي، إذ ربيتك صغيراً وأحسنت إليك. ونحوه كثير.

والوجه الرابع: الكفر، يعني البراءة، وذلك في الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ..﴿٤﴾﴾، يعني تبرأنا منكم. وقال الحسن: كفرنا بولايتكم في الدين. وفي العنكبوت: ﴿... ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا..﴿٢٥﴾﴾، يعني يتبرأ بعضكم من بعض. وقال إبليس: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22])، يعني تبرأت. ونحوه كثير)[1].

ما نلاحظه على اجتهادات ابن سلام، أنه عدد أوجه استعمال كلمة الكفر والمعاني التي جاءت بها في الآيات القرآنية، ومن الممكن القول أن كل وجه منها يشارك الوجوه الأخرى في معناه، ولكن تصنيفها يعطي المعنى الخاص في الآية في أقرب دلالة، ومن الممكن أن يتبين العلماء في العصر الحديث أوجهاً جديدة للكفر، يمكن أن تستعملها الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، في فهم الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، هذه الأوجه أو الأنواع للكفر لا تخرج عن المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية الإسلامية، ولا تنحصر بالمعاني التراثية التاريخية، التي حصر معنى الكفر فيها بما هو ضد الإسلام والإيمان فقط، بينما معنى الكفر في الأصل اللغوي والقرآني ما هو ضد المعرفة والعقل والعلم والحق.

إن استعمال المعاني الأصيلة لغة وكما هي في القرآن الكريم والسنة النبوية كفيل أن يلغي الفهم الخاطئ لمسألة التكفير، وقادر على إبعاد الفكر التكفيري عن الفكر الإسلامي

---

(1) التصاريف، يحيى بن سلام، قدمت له وحققته هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1979م، ص 104.

الحديث، وقادر على تفعيل المعاني الأصلية في بعث حياة إنسانية وإسلامية وإيمانية حديثة، توضح أهمية رسالة الإسلام للناس كافة، وهي تهدي إلى أنواع الإيمان، وترشد إلى دورها الفاعل في الحياة المعاصرة، وأنها عندما تتحدث عن الكفر فإنما لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولتستبين سبيل المجرمين، وتبعد الناس عن الأفكار الضالة والمسالك الضارة، وتبين لهم طرق الوقاية منها.

إن طرق الوقاية من الكفر لا تقل أهمية عن طرق الهداية إلى شعب الإيمان وأنواعه، مثل بيان كيفية دخول مفهوم الكفر اللغوي في القيم الفكرية عند الحديث عن الكفر الفكري، ودخوله في الكفر الأخلاقي وفي الكفر التعبدي وفي الكفر الاجتماعي وفي الكفر الاقتصادي وفي الكفر السياسي وغيرها، على أساس المعاني اللغوية والمعاني القرآنية والمعاني النبوية، وما بينه العلماء في شرح الأحاديث النبوية، وأخصها فتح الباري للإمام ابن حجر في شرح صحيح الإمام البخاري[1]، والمنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي رحمهم الله جميعاً.

قال الإمام النووي في شرحه لحديث النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**».

قال: «قيل في معناه: سبعة أقوال:

أحدها : أن ذلك كفر في حق المستحيل بغير حق.

والثاني : المراد كفر النعمة وحق الإسلام.

والثالث : أنه يُقرب من الكفر ويؤدي إليه.

والرابع : أنه فعل كفعل الكفار.

والخامس: المراد حقيقة الكفر، ومعناه لا تكفروا بل دوموا مسلمين.

والسادس: حكاه الخطابي وغيره أن المراد بالكفر: **المتكفرون بالسلاح**، يقال تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه، قال الأزهري في كتابه: (تهذيب اللغة)، يقال للابس السلاح كافر.

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة السلفية، رقم (7077 ـ 7080)، 13/ 26 ـ 29.

والسابع : قاله الخطابي معناه لا يكفر بعضكم بعضاً فتستحلوا قتال بعضكم بعضاً.

وأظهرُ الأقوال الرابع، وهو اختيار القاضي رحمَهُ الله»[1].

لقد ابتدأ الراغب الأصفهاني كلامه في بيان معنى كلمة الكفر بالمعنى اللغوي ثم استعرض استعمال القرآن الكريم لهذه الكلمة الأساسية فيه، فقال: (الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزَّرَّاع لستره البذر، وليس ذلك باسم لهما.. وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿...فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: 94]).

وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً قال: ﴿...فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 99]، ﴿...فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: 50]،.... ولما جعل كل فعل محمود من الإيمان جعل كل فعل مذموم من الكفر، وقال في السحر: ﴿... وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ....﴾ [البقرة: 102]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾، إلى قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]، وقال: ﴿...عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97].

والكفور: المبالغ في كفران النعمة، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: 17].

إن قيل: كيف وصف الإنسان ههنا بالكفور، ولم يرض بذلك حتى أدخل عليه إن، واللام، وكل ذلك تأكيد، وقال في موضع ﴿...وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ [الحجرات: 7]، فقوله: ﴿... إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15] تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، للإمام محي الدين النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1418هـ ـ 1997م، 2/ 243.

كفران النعمة، وقلة ما يقوم بأداء الشكر، وعلى هذا قيل: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: 17]، ولذلك قال: ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]...

والكَفَّارُ أبلغ من الكَفُور لقوله ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: 24]،.. **والكُفَّارُ في جمع الكافر المضاد للإيمان أكثر استعمالاً**، كقوله: ﴿... أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: 29]...

وقوله: ﴿... كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، قيل عنى بالكفار الزراع، لأنهم يغطون البذر في التراب ستر الكفار حق الله تعالى بدلالة قوله: ﴿... يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ..﴾ [الفتح: 29]، ولأن الكافر لا اختصاص له بذلك. وقيل بل عنى الكفار، وخصهم بكونهم معجبين بالدنيا وزخارفها وراكنين إليها..)[1].

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ص 714.

المبحث الثالث: معاني كلمة الكفر في القرآن الكريم والسنة

إن المنهج المتبع في دراسة معنى كلمة الكفر من القرآن الكريم هو المنهج التاريخي، وهو ما يعرف بالدراسة الموضوعية أو التفسير الموضوعي لهذه الكلمة، وذلك بتتبع ورود كلمة «الكفر» في سور القرآن الكريم بحسب ترتيب نزول السور القرآنية في المرحلة المكية والمرحلة اليثربية والمرحلة المدنية، مذكرين منذ البداية أنَّ هذه الدراسة التاريخية قائمة على الاجتهاد في ترتيب نزول السور القرآنية في تاريخ نزولها[1]، وعلى الاجتهاد في فهم المعاني المستنبطة من دلالات الألفاظ والمعاني ومقاصدها، أي إنها نوع من التفسير العلمي، وقيمتها العلمية هي بما فيها من حق وصواب وصلاح، دون إنكار التفاسير العلمية الأخرى التراثية والمعاصرة.

لعل أول استعمال في القرآن الكريم لكلمة الكفر ما ورد في سورة عبس المكية، فهي من أوائل السور المكية نزولاً، وفيها استعملت كلمة الكفر مرتين، الأولى مفردة ومقرونة بكلمة الإنسان لتفيد الإطلاق، وهي: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ والثانية بصيغة الجمع ومسبوقة باسم الإشارة «أولئك» لتفيد التعريف والبيان، في الآية الأخيرة وهي: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

أما المعنى الأول فقال الله تعالى في سورة عبس المكية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

في القسم الأول من هذه السورة الكريمة بيان أهمية توجيه الذكر لمن يقدِّره، فبالرغم من أن التذكير والهدى والإيمان لمنفعة الإنسان ومصلحته، إلا أن الإنسان المنكر للنعمة والجاحد للحقيقة يتولى ويعرض عن الذكر الذي يذكره بالحق والحقيقة، وهذا

(1) انظر: علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، الدكتور خالد شكري وعمران سميح نزال، ص 185.

كفر بنعمة الهداية، وجحود للجهد المبذول من النبي عليه الصلاة والسلام بالتذكير والإنذار.

فجاءت الآية التالية: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ نتيجة لما سبقها من معان باطلة، وأخطرها الاستغناء عن التذكرة، وتمهيداً لما يلحقها في سياقها، فقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

في الآيات السابقة تنديد بالجحود ونكران النعم التي أنعم الله بها على الخلق، نعمة الحياة والخلق والعيش والرزق والطعام التي لا يستغني عنها مخلوق حي، فأي جحود أكبر ممن لا يشكر من يخلقه ويطعمه، ولذلك جاء التحذير من سوء العاقبة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

لقد جاءت الآية الأخيرة من سورة عبس في تعريف الكفرة وهي جمع كافر، وهم الذين لا يشكرون الله على النعم المادية المحسوسة في الحياة والمأكل والتكاثر، ولا يقبلون بالنعمة المعنوية التي فيها الهداية والرشاد والعقل والعلم والكرامة، أي لا يشكرون الله على نعمة الخَلق ولا على نعمة الخُلق، فاستحقوا فوق حكم الكفر حكم الفجور.

وكما بين القرآن الكريم أنواع الإيمان وشعبه فقد بين أنواع الكفر وأوجهه لأن كل إيمان يقابله كفر، ممن لا يصدق به أو ينكر علميته أو لا يطمئن به أو لا يعمل بمقتضاه، دون أن يدخل هذا الوصف بالكفر إلى تكفير أحد من المسلمين بالتعين إطلاقاً، ولا إلى تكفير مجتمع إسلامي إطلاقاً، لأن القرآن الكريم لم يطلق حكم الكفر على أحد من الناس بالتعيين، ولم يكفر قوماً ولا قرية ولا شعباً ولا دولة ولا قارة بالاسم، وإنما أطلق صفات الكفر على من خالف العلم وأنكر النعمة وعمل بالفساد، وكذلك النبي عليه الصلاة

والسلام لم يكفر رجلاً بعينه ولا قرية ولا قبيلة ولا عشيرة ولا شعباً باسمه إطلاقاً، لأن مسألة التكفير قضية معنوية، ومعلوم أن مسألة التكفير المطلق والعيني مما بين الشرع ضوابطه وأحكامه[1].

وإنما يستعمل وصف الكفر للأوجه أو المواقف أو التصورات التي يستبدل فيها العلم بالجهل، ويستبدل الهدى بالضلال، وتستبدل الطاعة بالعصيان، أو يكون الإقرار والعمل به اتباعاً أو طاعة للكفار، كما في قوله تعالى من سورة الحجرات المدنية: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾، وقوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧﴾.

يقول أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية بين الكفر والشرك: (إن الكُفْرَ خصال كثيرة على ما ذكرنا، **وكل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان، لأن العبد إذا فعل خصلة من الكفر فقد ضيع خصلة من الإيمان**، والشرك خصلة واحدة، وهو: إيجاد آلهة مع الله أو دون الله، واشتقاقه ينبىء عن هذا المعنى)[2].

لقد أكد القرآن الكريم في مراحل نزوله على أنواع الكفر المعنوي، والتي نعتبرها أوجهاً كثيرة للكفر في كافة ميادين الحياة الدنيا، تحدث عنها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، لعلها تتضمن الأوجه التي ذكرها ابن سلام في كتابه التصاريف السابق ذكره، وأوجهاً أخرى تقترن في أوصافها المعنوية بمصطلحات معاصرة، وهي تقابل أنواع الإيمان السابق ذكرها وتعاكسها في المعاني والمفاهيم، فهي أوجهٌ للكفر بالمعنى اللغوي واللسان العربي المبين أولاً، وبالمعنى القرآني ثانياً، وليس بالمعنى المذهبي التراثي فقط، الذي يقيد الكفر بما كان ضد الإسلام والإيمان فقط.

---

(1) انظر كتاب: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، الدكتور عبد المجيد المشعبي، 1/ 193.

(2) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد باسل عيون ا؟لأسد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ-2000م، ص 258.

إن معنى كلمة الكفر بالمعنى اللغوي الستر، وبالمعنى القرآني إنكار العلم وجحود النعمة، فكل منكر للعلم وجاحد بالنعمة كافر، هذا المعنى لا يستعمل في وصف أفراد المسلمين والمؤمنين، ولا يستعمل في إسقاطه على مجتمعاتهم ودولهم، وإنما هو اوصاف علمية ومعنوية هي محل ومجال اجتهاد معنوي علمي، وليس محاكمة لأفراد ولا مجتمعات إسلامية، فوصف الأفراد والأشخاص بالكفر هو من اختصاص المحاكم الشرعية والقضاء الإسلامي الشرعي، وليس من صلاحية العلماء غير المخولين بالقضاء الشرعي، فضلاً عن أن يكون من مهمات طلبة العلم وأشباههم، فلا يحصر معنى الكفر بالمعنى الأضيق الذي هو ضد الدين، وإنما ينبغي المحافظة على المعنى اللغوي والمعني القرآني الذي يركز على إنكار العلم وجحود النعمة قبل كل شيء، والمنكر للإسلام والجاحد لنعمة الإيمان كافر لإنكاره العلم وجحوده النعمة، وليس لمجرد مخالفته اسم الإسلام والإيمان فقط، وكافر لما يحدثه من مفاسد، فكل اختيار لأحد أوجه الكفر هو اختيار لمفسدة تعود على الإنسان أولاً، وعلى الناس ثانياً، بالضرر والخسارة.

المبحث الرابع: أوجه الكفر ومفاسدها

الوجه الأول: الكفر الفكري

الكفر الفكري هو عكس الإيمان الفكري، ولكنه لا يقوم على فكر وإنما هو منكر للحقائق العلمية، وهو إنكار القيم الفكرية الصحيحة، وتكذيب الحقائق الوجودية والآيات العلمية الكونية، وفي مقدمتها إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى، وإنكار الأدلة المعرفية والعقلية والعلمية على وجوده ووحدانيته وحقوقه، والمسلم المصدق بالإيمان الفكري يتجنب كل أمر يشبهه بالكفار، خشية أن يشرك في إيمانه شيئاً ولو كان يسيراً.

الكفر الفكري هو أساس الكفر الحقيقي لأنه تغطية على كل حق فكري، وهو ستر الحق عن البيان والظهور والتصديق به والاطمئنان إليه، وقد تحدث عن الكفر الفكري العديد من الآيات القرآنية، وبالأخص المكية، منها قوله تعالى في سورة الطارق المكية: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾.

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الحقائق العلمية، في خلق الإنسان، وخلق الأرض، للدلالة على صدق المرسِل والمرسَل، والإنسان المنكر لصدق الرسالة هو نفسه الإنسان المنكر لصدق خلق الإنسان من ماء دافق، وهو نفسه المنكر لخلق الأرض ذات الصدع، فهو منكر للحقائق العلمية ومنكر للأفكار العلمية الصحيحة معاً، ولذا هو كافر بالحقائق العلمية وبالفكر الذي يثبت صحتها، وهذا المعنى للكفر هو المعنى اللغوي.

ومن الآيات المعبرة عن ذلك قوله تعالى في سورة ص المكية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧﴾، وقول الله تعالى في سورة الفرقان المكية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾.

ومعنى التصريف الوارد في الآية هو تقديم الحجج والبينات المعرفية والعقلية والفكرية والعلمية على أوجه كثيرة، الهدف منها تثبيت الحق وإثبات الحقيقة، ولكن المنكرين لهذه الحقائق لا يستطيعون الرد على هذه الحجج والأدلة، فأنكروها وجحدوها بالتغطية والستر حتى لا يطلع عليها أحد، إما بعدم مناقشتها أو بعدم سماع الحجج الصحيحة، فكانوا كافرين بها فكرياً وعلمياً قبل كفرهم بما يترتب على التصديق العلمي بها، فهؤلاء المنكرون للمعرفة العلمية لا بد من مجاهدتهم فكرياً، أي بذل كل الوسع والجهد في إبطال افترائهم وإقامة البراهين على كذبهم، وذلك بتقديم التفسير العلمي لهذه الآيات الكونية، والرد على حججهم وإبطالها.

والآية الأخيرة من سورة الفرقان المكية دليل على بيان نوع الكفر الفكري، لأن الجهاد الذي كان مطلوباً في مكة هو الجهاد الفكري، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وسورة الفرقان مكية وإنما جاهدهم باللسان والبيان ولكي يكفّوا عن الباطل) [1]، أي في مواجهة حجج المنكرين للقيم الفكرية الصحيحة التي جاء بها الإسلام، وعلى أعلى درجات المحاججة الفكرية وذلك بمطالبتهم بالبراهين إن كانوا صادقين، وهو ما أكده شيخ الإسلام ابن القيم بقوله: (فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن)[2].

ـ ومن الآيات التي تتحدث عن الكفر الفكري قول الله تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

ـ ومنها قول الله تعالى في سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، كتاب الفقه، قسم الجهاد، ص 28/ 38.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم الجوزيَّة، 2/ 103. ومختصره، للإمام محمد بن عبد الوهاب، ص 115.

ـ ومنها قول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الكفر الفكري في إنكار الأدلة العلمية على وجود الخالق الخبير، وهو العليم بأسرار خلق بعوضة وما فوقها، وفي إحياء الموتى وإماتتهم، وتتحدث عن الكفر السياسي، وهو إنكار القيم الصحيحة في القيام على الأمور العامة بما يصلحها، مثل نقد الميثاق الذي ينظم الحياة السياسية، والإفساد في الأرض وهو أشد أنواع الكفر، ومن وقع في الكفر الفكري فلا ينفعه إيمان نوعي آخر بعده، مثل التعبد في دور العبادة أو الأخلاق الحسنة أو غيرها، فالكفر الفكري مبطل لكل ما يقوم عليه من قول أو عمل، والواقع به من الناس ليس بمسلم ولا بمؤمن بإرادته واختياره، لأن الكفر الفكري قائم على حرية العقيدة كما هو الإيمان الفكري أيضاً، مصداق قول الله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾، وقول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

وبالرغم من أن الكفر الفكري يؤدي بصاحبه إلى الضلال وإهلاك النفس، إلا أن الإسلام لم يرتب عليه عقوبة دنيوية، لأنه قائم على حرية الإيمان وحرية الاعتقاد، وعلى مبدأ استخلاف الإنسان في الأرض، ورتب عليه عقوبة أخروية يوم القيامة، لأن الإنسان الذي اختار الكفر قد اختار الباطل، وما هو ضد الحق، وخلاف العلم، وحيث إنَّ هذه

المواقف تؤدي بصاحبها إلى ارتكاب الجرائم ضد نفسه أولاً، وضد غيره ثانياً، فإن ترتيب العقوبة الأخروية غايتها الحرص على الإنسان، لأن فيها تحميل للإنسان مسؤولية اختياره، وأنه لن يترك سدى، بل كل نفس بما كسبت رهينة، فهو مسؤول عن نفسه وعقله وعلمه، والخالق سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أن يختار العلم ويتمسك به، ويختار الأمن والسلام لنفسه.

الوجه الثاني: الكفر بالغيب الديني

الكفر بالغيب الديني هو تكذيب بما أخبر الله تعالى عنه أو رسوله من غيب الماضي والمستقبل، مثل تكذيب قصة خلق آدم عليه السلام، وتكريمه واستخلافه وعداء إبليس له ولذريته، ومثل تكذيب قصص الأنبياء السابقين وما أنزل عليهم من صحف وكتب، أو إنكار قيم الإيمان الصحيحة التي وردت في آيات القرآن الإيمانية الغيبية، والتصديق بدلاً منها بالجهل والخرافة والأساطير والسحر، أو التمسك بالعلم الدنيوي الظاهري فقط.

الكفر بالغيب الديني هو في جانب عدم التصديق بالحق وما يخبر به من الغيب، مثل إنكار الملائكة والجن واليوم الآخر والجنة ونعيمها والنار وعذابها، وعدم ذكر الأنبياء والرسل بالخير، أو الاعتداء عليهم بالسب أو القذف أو القتل، وفي جانب آخر فإن الواقع به واقع في الباطل ومتمسك بدين باطل، لأن الواقع في الكفر الغيبي ساتر للحق ومنكر للعلم الصادق فهو كمن يبتغي ديناً غير الإسلام، بل والداعين إلى ذلك الدين الباطل، مثل الدعوة إلى الشرك أو عبادة الأصنام الحجرية أو الأصنام البشرية.

وقد تحدثت العديد من الآيات القرآنية عن الكفر بالغيب الديني منها قول الله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، فهذا إنكار ليوم البعث والنشور والحساب، ومنها قوله الله تعالى في سورة الرعد: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾، وقول الله تعالى في سورة القلم المكية: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾، فهذا كفر ديني لأنه إنكار لما جاء في الذكر من قيم صحيحة عن الحياة الماضية والنجاة القادمة.

الوجه الثالث: الكفر التعبدي

وهو إنكار حق الله تبارك وتعالى في الشكر والعبادة والدعاء له وحده دون سواه، وعبادة أصنام لا تستحق العبادة ولا تنفع ولا تضر، وقد تحدثت عن الكفر التعبدي العديد من الآيات منها: قول الله تعالى في سورة الكافرون المكية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، فهذه السورة القصيرة في حجمها عظيمة في معانيها، فهي تصف بعض أفعال الكفار بالعبادة، وتجعلهم مختارين لها بإرادتهم وتقديرهم، ولكنها في نفس الوقت تناديهم بصفة الكفر، فتناديهم بيا أيها الكافرون، فهي تجعلهم من الكافرين أولاً، ثم تبين لهم أنهم مسؤولون عن دينهم الذي ارتضوه وأقاموا عبادتهم على أساسه، أما الله تبارك وتعال فإنه لا يرضى لعباده الكفر في الاعتقاد ولا في العبادة، كما قال الله تعالى في سورة الزمر المكية: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة الفرقان المكية: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾، ومنها قول الله تعالى من سورة النمل المكية ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾، ومنها قول الله تعالى في سورة لقمان المكية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾.

- ومنها قول الله تعالى في سورة الزمر المكية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾.

- ومنها قول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾، وفي تفسير هذه الآية يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وفي حديث عدي بن حاتم ـ وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما ـ وكان قدم على النبي ﷺ، وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: فقلت له: إنَّا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم.

وكذلك قال أبو البختريّ: أما إنهم لم يصلوا لهم ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية)[1].

الوجه الرابع: الكفر الأخلاقي

الكفر هو الإنكار والجحود فإذا كان في الجانب الأخلاقي فهو إنكار القيم الخلقية الصحيحة التي تزكي النفس الإنسانية وتهذبها، وتغطية الحقوق الأخلاقية وسترها، أو تمنعها من الظهور، وتظهر بدلاً عنها الأخلاق الفاسدة، التي تحرك في النفوس الشهوات العدوانية، فهو عكس الإيمان الأخلاقي، وقد تحدثت العديد من الآيات القرآنية عن الكفر الأخلاقي ومنها قول الله تعالى في سورة الشمس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾، فالنفس الإنسانية مهيّأةٌ للفجور والتقوى، أي غير مكرهة على فعل الفجور أو التقوى، وإنما إرادة الإنسان واختياره وبحثه المعرفي الصادق هو يزكيها بالإيمان الأخلاقي، وهو يدسيها

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 64.

بالكفر الأخلاقي، أي بتمسكه بالأخلاق الذميمة من طمع وحسد ونميمة وغيبة وسخرية وإيذاءٍ بالآخرين وغيرها.

ـ ومنها قول الله تعالى في سورة فصلت: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ ﴾.

والمقصود بالزكاة في آية سورة فصلت الزكاة الأخلاقية، وهي طهارة النفس وتنقيتها من الشوائب، وهذه الآية تشمل معونة الغير مالياً، وهو عمل أخلاقي حتماً، وليس الزكاة المالية ذات النصاب المقرر شرعاً، لأن الآية مكية بحكم تاريخ نزول سورة فصلت في المرحلة المكية.

ومن الأخلاق المذمومة شرعاً وصنفت في عداد الكفر الأخلاقي ما رواه الإمام مسلم قال: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا أبو معاوية. ح وحدثنا ابن نمير (واللفظ له) حدثنا أبي ومحمد بن عبيد. كلهم عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر. الطعن في النسب والنياحة على الميت**»[1].

قال الإمام النووي في شرح الحديث وتعليل وصف الكفر الأخلاقي: «وفيه أقوال: أصحها أن معناه هما من أعمال الكفر وأخلاق الجاهلية، والثاني أنه يؤدي إلى الكفر، والثالث أنه كفر النعمة والإحسان، والرابع أن ذلك في المستحل. وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة) [2].

قلت: في كلام الإمام النووي ترجيح للمعنى الصحيح، وهو أن أخلاق الجاهلية هي من الكفر الأخلاقي، والمقصود من وصفه الخُلق الجاهلي بالكفر هو التغليظ في التحريم حتى ينزجر عنه كل من يقترفه.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، رقم (224)، 2/ 245.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، رقم (224)، 2/ 245.

الوجه الخامس: الكفر الاجتماعي

الكفر الاجتماعي هو الكفر الأخلاقي ولكن في مجال المجتمع كله وليس حصراً في الخلق الفردي فقط، وهو إنكار القيم الصحيحة التي تنظم شؤون المجتمع الإنساني بالمساواة بين أبنائه، وإنكار حقوقهم في الزواج السليم، وعدم كفالة العيش الكريم لكل أبناء المجتمع دون تمييز أو تفريق، ومنع تحقيق الخير الخاص والعام والسعادة للجميع، وتغطية الحقوق الاجتماعية وسترها، وقد تحدثت عنه العديد من الآيات منها قول الله تعالى في سورة ق المكية: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾.

تبين هذه الآيات الكريمة أن مانع الخير عن الناس من أشد أنواع الكفر فهو كفَّار، وهو معتد مريب في كفره الفكري والديني أيضاً إذ جعل مع الله إلهاً آخر، فاستحق العذاب الشديد على كفره الاجتماعي وكفره الديني، وقد قدم الله تعالى الكفر الاجتماعي على الكفر الفكري العقدي ليبين أن الكفر الاجتماعي أشد ضرراً على الناس ومآله الكفر الديني العقدي.

ومن الآيات التي تتحدث عن الكفر الاجتماعي ومنها قول الله تعالى من سورة الأنعام المكية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝١٢٣ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ۝١٢٤ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٧﴾.

لقد بدأت هذه الآيات الكريمة حديثها عن الفرد الذي يمشي على نور من ربه، أي وهو يصدق بالإيمان الفكري والأخلاقي، فهو بتصديقه المعرفي بالعلم وحسن أخلاقه

على نور من ربه، وفي مقابله الكافر فكرياً وأخلاقياً فهذا كمن يمشي في الظلمات، فإذا دخل الأول على الناس، أي دخل في العلاقات الاجتماعية، فإنه يصنع دار السلام في الدنيا بإيمانه وأخلاقه، ويدخل الجنة بأجره وإحسانه، والآخر الذي اعتقد الكفر الأخلاقي إذا دخل بأخلاقه الذميمة على المجتمع فإنه يدخله مجرماً، أي إنَّ الكفر الاجتماعي هو الإجرام بوصف القرآن الكريم له، وفاعله يوصف بالمجرم، لأنه لم يحصر كفرَه على حياته الخاصة، بل بها على الناس والمجتمع ليفسده، فكان من المجرمين الذين لا يستمعون لآية ولا يقبلون حكماً عقلياً ولا رأياً سديداً.

ـ ومنها قول الله تعالى في سورة هود المكية: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، والمقصود بالسبيل الحركة الجماعية الصالحة للناس، والذي يصد عن السبيل هو الذي يصد المجتمع عن الحركة التي تنفعه وفيها صلاحه فعلاً.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ .... ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

نلاحظ أن هذه الآيات الكريمة من سورة الأنعام تتحدث عن دار السلام التي لا يحكم فيها المجرمون، واسم دار السلام وإن أطلق على الدار الآخرة، ولكن ليس ما يمنع

أن يطلق على دار المؤمنين في الدنيا، وحيث إنَّ سورة الأنعام مكية وربما كانت من السور الئربية، فهي تمهد إلى دار الهجرة وهي المدينة المستقبلية للمسلمين والمؤمنين، ولأن الله جعلها مبدأ لإعزاز دينه ونصرة رسوله [1]، فهذه الآيات تبين أسس بناء المجتمع السليم الذي لا يحكمه المجرمون.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة الأحقاف المكية: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، الاستكبار كفر أخلاقي وكفر اجتماعي وكفر سياسي أيضاً، فإذا كان المتكبر فرداً فهو كفر أخلاقي، أما إذا كان الاستكبار قيمة اجتماعية منتشرة وفاشية بين الناس فهو كفر اجتماعي، لأنه إنكار لحقيقة مساواة الناس في الحقوق الاجتماعية، وأما إذا كان من أخلاق أولي الأمر والمستبدين بالسلطة فهذا استكبار سياسي، والأخير كفر سياسي لأنه إنكار للقيم الصحيحة التي تسوس شؤون الناس بالعدل والمساواة.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة نوح المكية: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾، فهذه دعوة في الأمان الاجتماعي، وأن المجتمع السليم لا يتحقق إذا غلب عليه المنكرون للحق، والرافضون للحقيقة.

ـ ومنه قول الله تعالى في سور العنكبوت المكية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

وفي تفسير هذه الآية قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: (**فالكفر المطلق هو الظلم المطلق**، ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة)[2].

---

(1) انظر: مختصر زاد المعاد للإمام ابن القيم الجوزيَّة، للإمام محمد بن عبد الوهاب، ص 131.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 74.

الوجه السادس: الكفر الاقتصادي

وهو إنكار القيم الاقتصادية الصحيحة التي تنظم شؤون المال وتداوله بين الناس والمسلمين والمؤمنين بطرق سليمة ودون اعتداء، وإنكار تحركه وتفعيله بطرق آمنة تحفظ الحقوق والمنافع للجميع، ومن الكفر الاقتصادي جعل المال بأيدي قلة من الناس وحرمان الغالبية منه، وتجعل من المال والشهوات غاية الإنسان في الحياة الدنيا، وتشجع على التمتع بالشهوات العدوانية التي تلحق الأذى بالآخرين من الناس، أو تمنع انتقاله بين الأحياء والأموات ظلماً وحوباً، فالكفر الاقتصادي تغطية الحقوق الاقتصادية عن الناس وسترها، وقد تحدثت عنه العديد من الآيات القرآنية منها:

قوله تعالى في سورة يس المكية: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾، والإنفاق عمل اجتماعي فيه مساعدة للآخرين، فكان المانع عن مساعدة المحتاجين كافراً اجتماعياً لأنه مانع لحق العون الاجتماعي بين الناس.

ومنها قول الله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فهذه الآية الكريمة تتحدث عن عبادة الله وحده وتنهى عن الكفر التعبدي بعبادة إله غيره، وتتحدث عن الإيمان الاقتصادي بالوفاء بالكيل والميزان، وتنهى عن الكفر الاقتصادي في بخس الناس أشياءهم، الذي يؤدي إلى إضاعة الحقوق والخسارة على التجارة والكساد الاقتصادي، وتنهى عن الكفر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي معاً والتي تجتمع في مصطلح القرآن الكريم باسم الفساد في الأرض.

وقول الله تعالى في سورة الإسراء المكية: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾. لأن التبذير وهو فوق كونه كفراً اجتماعياً كفر اقتصادي لأنه مهلك للطاقات ومنهك للقوى في غير مكانها الصحيح، فالتبذير إنكار للقيم الاجتماعية الصحيحة التي تحفظ أموال المجتمع وتحسن استهلاكها على الوجه الأتم والسليم.

ومن أوصاف الكفر الاقتصادي في القرآن الكريم وصف الترف، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾، فالمترف كافر اقتصادياً لأنَّ كثرة ماله وطمعه أبعده عن الحق والعلم.

ومنها قول الله تعالى في سورة النحل المكية: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.... ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾.... ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾.

ـ ومنه قول الله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وفي بيان معنى هذه الآية قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: (وقد ثبت في الصحيح وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحميَ عليها في نار جهنم، فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»[1].

وفي حديث أبي ذر: «بشر الكانزين برضف يحمى عليها في نار جهنم فتوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل[2]، وتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحر في أجوافهم».

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، حديث رقم (2287)، 7/ 67.

(2) انظر: الجامع الصحيح للإمام البخاري، كتاب الزكاة، الحديث رقم (1407)، 2/ 137.

وهذا كما في القرآن، يدل على أنه بعد دخول النار، فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أوَّلاً في الموقف.

فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع أشباهه وماله الذي صار عبداً له من دون الله، فيعذب به، وان لم يكن هذا من أهل الشرك الأكبر الذين يخلدون في النار.

ولهذا قال في آخر الحديث: «ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار». فهذا بعد تعذيبه خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يدخل الجنة.

وقد قال النبي ﷺ: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**».

قال ابن عباس وأصحابه: **كفر دون كفر**، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره)[1].

ومن الكفر الاقتصادي البخل وأمر الناس بالبخل، وأخذ الربا بعد النهي عنه، وكتمان ما آتاهم الله في الإيمان الاقتصادي، وأكلهم أموال الناس بالباطل، كما قال الله في سورة النساء المدنية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾.. ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾.... ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾.... ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ ﴾.

الوجه السابع: الكفر السياسي

وهو إنكار القيم الصحيحة التي تقوم عليها علاقات الحاكمين والمحكومين، بين أولي الأمر والمواطنين، وإنكار حق المحكومين في اختيار من يحكمهم بالشورى والعدل والعمل الجماعي الحكيم، وإنكار حق الحاكمين الشرعيين في الحكم والقضاء والطاعة في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغطية الحقوق السياسة للناس وسترها، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله، ومنه منع الحقوق العامة للناس،

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد السابع، الإيمان، ص 74.

وهذا الكفر شبيه بما تعارف عليه الفقهاء بوصف الحرابة[1]، قد اهتم القرآن الكريم كثيراً بالتنديد بالكفر السياسي لأنه يحرم الناس من كل حقوقهم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، ويظلمهم في كل أمور حياتهم، فهو الإفساد في الأرض وسفك الدماء بغير حق والصد عن سبل السلام، ولو قلنا إن الكفر السياسي هو السبب الأول في تشريع الجهاد في الإسلام لكنا أكثر قرباً إلى فهم موضوع الجهاد والقتال بصورة أوضح وأصدق.

وفي الآيات التالية نتعرف كيف ربط القرآن الكريم بين الكفر والإفساد في الأرض والاستكبار وارتكاب الجرائم والصد عن الهدى، ونتعرف أن من أكبر الكفر السياسي هو ظلم المستضعفين في الأرض بحملهم على الكفر الفكري والكفر الديني والكفر الاجتماعي وغيرها، ومن هذه الآيات قول الله تعالى في سورة سبأ المكية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ومن عظات الكفر السياسي ما جاء في قصص القرآن العظيم عن كل الملوك الظلمة وعلى رأسهم فرعون ومنها قول الله تعالى في سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ

(1) انظر: الجهاد في الإسلام، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 54.

مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

ومن الكفر السياسي الصد عن سبيل الله، لأن سبيل الله هو سبيل الحق في كل مجالات الحياة وميادينها، فهو قرين الصد عن الشريعة الحسنة والقانون العادل، وكل صد عن سبيل الله هو إفساد في الأرض، كما قال الله تعالى في سورة النحل المكية: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وقوله تعالى في سورة إبراهيم المكية: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

ومن الكفر السياسي إخراج رسل الهداية من أرضهم، والضغط عليهم ليعودوا في ملة الكفر والضلال، كما قال الله تعالى في سورة إبراهيم المكية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

إن الكفر السياسي قرين الفساد في الأرض، ولهذا قرن المولى عز وجل بينهما في كثير من آيات القرآن الكريم ومنها في مقدمة سورة البقرة: (﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾).

وفي بيان معاني هذه الآيات قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن هذا الباب لفظ «الصلاح» و «الفساد» فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع

الشر... وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

والضمير عائد على المنافقين في قوله: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين». وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبي ﷺ، ومن سيكون بعدهم، ولهذا قال سلمان الفارسي: إنَّه عنى بهذه الآية قوماً لم يكونوا خلقوا حين نزولها.

وكذا قال السدي عن أشياخه: الفساد: الكفر والمعاصي.

وعن مجاهد ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهي والقولان معناهما واحد.

وعن ابن عباس: الكفر.

وهذا معنى قول من قال النفاق الذي صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين[1].

ومن الكفر السياسي التلاعب بآيات الله، وأمر الناس بالمعروف وعدم العمل به، كما قال الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ومن أكبر الكفر السياسي إخراج الذين آمنوا من أرضهم وديارهم حتى يفتنوهم ويردوهم عن دينهم، وهذا الكفر السياسي هو علة القتال في الشرع الإسلامي، كما قال الله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾، ومنه قول الله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، كتاب الإيمان، ص 7/ 83.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾، فالذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس هم من أهل الكفر السياسي، مثلهم مثل الذين يقتلون النبيين بغير حق.

وقد حدد الإسلام أعداءه إذا كانوا من أهل الكفر السياسي، كما قال الله تعالى في سورة الممتحنة المدنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

ومن الكفر السياسي الصد عن سبل الحق والهدى واتّباع الباطل بالصيغة الجماعية، فلو كان اتّباع الباطل للأفراد لكان الكفر فكرياً، أما اتّباع الباطل جماعياً، فهو يعني الكفر السياسي لأن هناك من حمل الجماعة على الكفر السياسي، فهم في مقام الدولة التي تصد عن سبيل الحق والهدى، فكانت أعمال هذه الدولة ضلالاً وفساداً، كما قال الله تعالى في سورة محمد المدنية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾.... ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾.... ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۚ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

ومن الآيات التي تندد بالكفر السياسي وتبين وجه كفرهم السياسي ونوعه، قول الله تعالى في سورة الحج المدنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.... ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

هذه الأوجه وغيرها موجودة في القرآن الكريم ومتداخلة ومتعاضدة مع بعضها، وتصنيفها إلى أنواع متعددة هو للبيان والتوضيح، لأنها في الحقيقة غير مفصولة عن بعضها إلا في معناها وأثرها في الحياة ونوع عاقبتها أو عقوبتها، والذي يلاحظ على هذه الأنواع أن العقوبة عليها قد رتبت على حسب نوعها، فإن كان الكفر فكرياً أو تعبدياً أو دينياً، فإن عقوبتها في الدار الآخرة يوم القيامة، أما في الدنيا فلا إكراه في الدين ولا في الفكر ولا في العبادة، وأما إذا كان الكفر أخلاقياً خاصاً ولا يؤثر على المجتمع فحكمه إلى الله، وأما إذا كان الكفر الأخلاقي يؤثر على سلامة المجتمع وطهارته، فإن من حق المجتمع الطاهر وبما فيه من أجهزة اجتماعية فاعلة أن تقاومَ هذا الكفر وتمنعه، فإن لم تستطع فمن حق الجهاز السياسي أن يتدخل في منع هذا الكفر الأخلاقي لأنه أصبح كفراً اجتماعياً، لأنه يؤثر على سلامة المجتمع وقوته ومتانته.

وأما الكفر الاقتصادي والكفر السياسي فلا يسمح به في دولة المؤمنين مثل الكفر الاجتماعي، ويمنع ويقاوم بقدر ما يسيء إلى مجتمع المسلمين ودولة المؤمنين، فالمنع والزجر للكفر بحسب نوعه ودرجته وأثره في الحياة الإسلامية العامة، فما أجلت عقوبته في القرآن الكريم إلى يوم القيامة والحساب، لا يعاقب الكافر به في الدنيا، وما عجل الله عقابه في الدنيا أو أقام له حداً شرعياً أو فرض عليه جهاداً أو قتالاً فهو من الكفر الأخلاقي أو الكفر الاجتماعي أو الكفر الاقتصادي أو الكفر السياسي.

إن جعل عقوبة الكفر الفكري والتعبدي والديني في الآخرة إقرار لمعنى التعدد الفكري والتعبدي والديني وإن لم يكن إقراراً لها بالحق والصواب، بينما إقامة العقوبة والزجر والمنع على الكفر الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الدنيا

والآخرة إقرار بان الحياة الدنيوية الإنسانية والمجتمع المسلم ودولة المؤمنين لا تستقيم فيها الحياة ولا يتحقق فيها الأمن إلا بمنع كل هذه الأنواع الكفرية.

والسبب أن أثر الكفر الفكري والتعبدي والديني على الإنسان بمفرده ما لم يؤثر على الحياة العامة، بينما الكفر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، أثره في الدنيا ويتضرر من أذاه كل الناس، المسلم وغير المسلم، فلا يسمح به للمسلم ولا لغير المسلم، ويمنع منه المسلم وغير المسلم، وإذا عوقب غير المسلم بسببه فليس لأنه غير مسلم وإنما لأنه مفسد في المجتمع وكافر بحقوقه الاجتماعية، وأثره في الإفساد لا يعود على المسلمين وحدهم، بل وعلى غير المسلمين بل وعلى المفسد نفسه وأهله وطائفته، فكان لا بد من مقاومته وزجره حفاظاً على المجتمع، أي لأنه جريمة يعاقب عليها القانون والدولة ولو لم تكن إسلامية[1]، وليس عقوبة على فكره ولا عبادته ولا دينه.

والجهاد في الإسلام شرع لمقاومة الكفر الأخلاقي العام وليس الخاص، وشرع لمقاومة الكفر الاجتماعي والاقتصادي، أما القتال فقد شرع لمقاومة الكفر السياسي فقط، دفاعاً عن حقوق الناس وسلامة حياتهم وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم وحقهم في إقامة مجتمعهم الذي يؤمنون به ويرضونه، فالجهاد في الإسلام شرع وشريعة، يتعلق بأنواعِ الكفر بحسب أثرها السلبي في الحياة العامة، وليس لمجرد الكفر الديني أو العقدي الفردي.

والخلاصة أن الكفر قد يطلق ويراد به الكفر الذي لا ينقل عن الملة مثل كفران العشير ونحوه عند إطلاق الكفر[2]، فأما إن ورد الكفر مقيّداً بشيء فلا إشكال في ذلك كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 112].

---

(1) انظر: حق الدولة في العقاب، الدكتور عبد الفتاح مصطفى الصيفي، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1971م، ص 9 و 24. وكتاب: الجريمة والمجرم في الواقع الكوني، الدكتور رمسيس بهنام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995م، ص 65.

(2) وقد أحال هذا الباب من «كتاب الإيمان» عند شرحه لحديث (1038).

وإنما المراد هاهنا: أنه قد يرد إطلاق الكفر ثم يفسر بكفر غير ناقل عن الملة، وهذا كما قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: 44]، قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ؛ إنه ليس بكفر ينقل عن الملة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كفر دون كفر. خرجه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد[1].

(1) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري ص 2/ 313.

الفصل الرابع:

النظرية السياسية الإسلامية ونصوصها الشرعية

النظرية مصطلح يفيد تقديم وجهة نظر حول قضية معينة، وهي في المعنى اللغوي مشتقة من النظر بمعنى التفكر والتدبر، وقد تبين في التمهيد أن معنى السياسة: القيام على الأمور بما يصلحها، فإذا قيل بالنظرية السياسية فالمقصود صياغة المعاني أو الأفكار أو القيم التي تنظم شؤون الناس بما يصلح أحوالهم ويرعى شؤونهم، وأما وصفها بالنظرية السياسية الإسلامية، فالمقصود بيان المعاني والأفكار والقيم الإسلامية التي تنظم شؤون الإنسان والناس الذين يعيشون في مجتمع إسلامي، لذا لا يثير هذا العنوان تعجباً عند المسلم المؤمن، أي المسلم الذي يعرف علوم الإسلام وأحكام الشريعة الإسلامية وبالأخص في السياسة الشرعية، فالمسلم يؤمن أن في القرآن الكريم تبياناً لكل شيء، وأن الله تبارك وتعالى ما فرط في الكتاب من شيء، سواء كان في الإيمان أو في العمل الصالح.

ولكن قد يستبعد بعض المسلمين الذين لا يعلمون من الكتاب والسنة إلا أماني اهتمام الإسلام بالشأن السياسي، وقد ينكرون أن فيه نظرية سياسية في إدارة الحياة الدنيا، وقد يرفض غير المسلمين تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً ظناً منهم أن التفسير السياسي الإسلامي محصور في أفعال الحركات الإسلامية السياسية المعاصرة، وفيما يصدر عنها من عمليات قتالية ضد الاحتلال، وبالتالي فإنهم يرون أن أي تفسير سياسي للإسلام لن يكون إلا عدواً لهم أو عدواً لغير المسلمين، وهذا موقف لا يقوم على صواب، ومشوه لكل معنى إيجابي عن الإسلام والمسلمين، فكيف يمكن تصور رسالة هي خاتمة لرسالات الله تبارك وتعالى تغفل أصول الحياة السياسية المستقيمة، أو لا تؤسس أركان دستور الحياة العامة للناس كافة وللمسلمين بخاصة وللمؤمنين بشكل أخص.

ونحن هنا نستعمل كلمة الدستور بالمعنى السياسي كما استعمله الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتبه السياسية ومنها كتابه «تدوين الدستور الإسلامي» الذي نخصه بالدراسة في هذا الفصل لأهميته، وبالرغم مما على مصطلح الدستور من ملاحظات إلا أنه مفيد وقابل للاستعمال في الثقافة الإسلامية المعاصرة[1]، ومما قاله الأستاذ المودودي: إنَّ الدستور الإسلامي لم يدون من قبل وإنَّ المسلمين مطالبون بتدوينه في هذا العصر، فعدم تدوينه لا يمنع من تدوينه، وعدم تدوينه من قبل لا يعني أنه لم يكن موجوداً أو لم يكن مطبقاً ولو بصورة ناقصة، وقد بينا من قبل أن كلمة الدين تعني بأحد معانيها الدستور، فقال: «ليس الدستور غير المدون بشيء غريب لم تعهده الدنيا، فإنه ما زالت جميع الدول في العالم تجري نظمها على الدساتير غير المدونة إلى القرن الثامن عشر، ولا تزال دولة كبيرة من دول العالم ـ بريطانيا ـ تجري شؤونها إلى يومنا هذا من غير دستور مدون، ولو أن إنجلترا دفعتها الحاجة إلى أن تدون دستورها لما وسعها إلا أن ترتب مواد دستورها باقتباسها من مختلف المصادر لدستورها غير المدون، وها نحن نواجه مثل هذه الحاجة بعينها»[2].

ونحن مع موافقتنا على حاجة الأمة الإسلامية لتدوين دساتير سياسية إسلامية معاصرة، إلا أن دعوى عدم تدوين دستور إسلامي من قبل لا تسلم للمودودي رحمه الله، فمن أوائل الأعمال التي قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام عند هجرته إلى المدينة المنورة، تدوينه للدستور الإسلامي المدني، والذي أطلق عليه الصحيفة[3]، فكان دستوراً بين المسلمين والمؤمنين الذين أعلنوا في المادة الأولى من هذا الدستور أمة واحدة من دون

---

(1) انظر: معجم المناهي اللفظية، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص 258.

(2) تدوين الدستور الإسلامي، أبو الأعلى المودودي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، طبعة 1405هـ ـ 1985م، ص 10.

(3) انظر نصوص دستور دولة المدينة في كتاب: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميدالله، دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة، 1407هـ ـ 1987م، ص 57. وكتاب: السياسة والحكم، د.حسن الترابي، ص 90. وكتاب: مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام، د.محمد هلال، 90.

الناس وهم من المهاجرين والأنصار، وتنظيم علاقتهم بالآخرين الذين يعيشون معهم على نفس الأرض وفي نفس المجتمع من اليهود، ولكن المسلمين بعد العهد النبوي والخلافة الراشدة لم يدونوا الدستور بالرغم من التغير الكبير الذي طرأ على الحياة السياسة داخل وخارج الدولة الإسلامية، ولعل ذلك بسبب أن مهمة تطبيق الشريعة على المسلمين وتنظيم العلاقات مع غيرهم اعتمدت على أحكام القضاء الإسلامي وبالأخص في تسيير الشؤون الاجتماعية، وترك أمور الشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية للخلفاء ومن يختارونهم لهذا العمل وليس للأمة نفسها، ولكن الدولة العثمانية اضطرت إلى تدوين دستور لها تحت ضغوط خارجية وداخلية قبل إسقاطها[1].

وهذا يعني أن تدوين الدستور من السنة النبوية التي لم تعطِ الأهمية الكافية لتدوين الدستور الإسلامي في كل عصر بحسب ما يطرأ على حياتهم من تغيرات وتطورات، ومن هنا نجد أن من السنة النبوية أن يسعى علماء المسلمين وأمراؤهم إلى تدوين دستور أو دساتير إسلامية تبين مفهوم الحياة السياسية في الإسلام، ويحتوي على تعريف للجهاد في الإسلام جزء من بنيته الفكرية ومواده الأساسية، التي ينبغي على مواطني الدولة الإسلامية معرفتها والتصديق بها على أنها جزء من الإيمان السياسي الذي يوحد بين المسلمين، وحتى يكون الحرص التام على عدم تجاوزها، أو مخالفتها بحجج أو شبه شرعية أو غير شرعية، على أن لا يكون تدوين الدستور منوطاً بآحاد العلماء أو الدعاة فقط وإنما عن طريق مؤسسات علمية ومجامع فقهية، على علم ودراية بالعلوم السياسية وتدوين الدساتير بصيغ قانونية وسياسية.

إن أي محاولة لتقديم دستور إسلامي تتطلب بيان مفهوم النظرية السياسية في الإسلام، أي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، وطالما أن المفهوم هو نظرية فإن ذلك يعني أنه اجتهاد فقهي سياسي، وليس هو الإسلام، فالاجتهاد تفسير وتأويل بشري للإسلام وليس الإسلام نفسه، ومن أهم معالم النظرية السياسية بيان أسباب وأهداف

---

(1) انظر: نصوص القانون الأساسي أو الدستور، الذي أعلن عام 1908م، انظر كتاب: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ص 216.

وجود الدولة وقيمها، أي الغايات التي تقوم من أجلها أي دولة، والأركان التي تقوم عليها، والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، والدولة الإسلامية لا تختلف عن دول العالم، فلها أسباب خاصة في الوجود وأركان أساسية تقوم عليها وأهداف متميزة في الغايات التي تسعى إلى تحقيقها.

أما في الأسباب فهي إقامة الدولة على أساس مفهوم الخلافة الآدمية، وهو أن الله تبارك وتعالى استخلف الإنسان على الأرض مخلوقاً حراً ومتعلماً ومبيناً في عقله ولسانه، فالركن الأول فيها الإنسان الحر والعالم، ولذلك علم آدم الأسماء في قصة الخلق، وبدأ خطابه القرآني الأول بالمفتاح المعرفي وهو القراءة بقوله تعالى في سورة العلق المكية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، وقد بينا أن الإنسان المصدق بالعلم هو الإنسان المسلم المؤمن في المصطلح القرآني، والركن الثاني أن جعل الله تبارك وتعالى للإنسان زوجة وأبناء، أي إنَّ الوجود البشري ليس فردياً وإنما جماعيّ، ويجمع بين الناس علاقات فطرية وإرادية في الزواج والتكاثر والمعايش، وعلاقات فطرية وإرادية في العلوم والعقول والمعارف، والعلاقات الإرادية ينبغي أن تحقق للناس العدالة، ولذلك أوجب الإسلام تنظيم الحياة العامة بالإرادة الكلية للمؤمنين، فكما أن القراءة روح الحياة الفردية فكذلك التنظيم روح الحياة الجماعية.

ولذا أرشد الإسلام الناس عن طريق الأنبياء إلى العلم الحق (الإيمان)، وإلى العمل النافع (الصالح)، والصلاح إقامة الحياة على أساس العدل بين الناس، فقال تعالى في سورة الحديد المدنية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾، فالحياة الإنسانية في نظر الإسلام تقوم على العلم والعمل، العلم الحق وهو الإيمان والعمل النافع وهو الصلاح، ليقوم الناس بالقسط، والضابط لذلك والضامن لتحقيق المنافع للجميع هو الحديد، أي القوة السياسية كما فسرها الأستاذ المودودي رحمه الله[1].

(1) نظرية الإسلام السياسية، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1401هـ - 1981م، ص 39.

ولذلك فإن مهمة الأنبياء الحقيقية أن يظهروا العلم الحق على كل علم آخر، وأن تسود العلاقات الحسنة بيْنَ الناس كافة، وأولها العلاقة الحسنة مع الله الخالق سبحانه وتعالى عن طريق العبادة الصحيحة في الصلاة، وثانيها العلاقة الحسنة بين الناس عن طريق التعاون على البر والتقوى، وفي مقدمتها الزكاة الخلقية المعنوية المطهرة للنفس الإنسانية، والزكاة المالية المطهرة للمجتمع الإنساني المسلم المؤمن.

وهذا ما ركز عليه المجتمع المكي اليثربي، فقد هيأ القرآن الكريم أفراد المسلمين والمؤمنين إلى بلوغ مستوى المجتمع الراشد، الذي يسعى بكافة قواه إلى بلوغ مستوى الدولة، فإذا بلغوا مرحلة الدولة، أي العقل الجامع والسلطة النافذة والأرض الآوية، فإنهم مطالبون بأن يوثقوا صلتهم الجماعية بالله تعالى عن طريق إقامة الصلاة الجماعية، وأن يوثقوا صلتهم الجماعية مع بعضهم عن طريق إيتاء الزكاة الجماعية، وأن يحافظوا على ما اتفقوا عليه بأن يأمروا بالمعروف، وأن يحموا أنفسهم من الشرور بأن ينهوا عن المنكر، فقال تعالى في سورة الحج: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾، وأمر المؤمنين أن ينتخبوا هذه الأمة الحاكمة منهم، لتقوم بالواجبات التي تحفظ الحقوق العامة والخاصة، بالتعليم والتثقيف والأمر والنهي، فقال تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

هذه المعاني من أسس النظرية السياسية الإسلامية، ولكن تفصيلها ووضع مشروع دستور إسلامي منظم للحياة العامة للمسلمين، يتطلب استقراء النصوص السياسية الإسلامية في الكتاب والسنة النبوية البيانية والعملية، وهذا ممكن فعلاً، فالنصوص الإسلامية السياسية كثيرة جداً، وتحتاج إلى العالم المسلم السياسي، أي الذي يقرأ النصوص الإسلامية التي تقوم على الحياة العامة بالرعاية والصلاح، فإذا قرئَتْ هذه النصوص قراءة سياسية عصرية ولم تحصر في القراءة التراثية التي استنبطت في عصور سابقة، والتي كانت في حينها معالجة لقضايا أهلها وعصرها، فإنها قادرة على بيان النظرية السياسية الإسلامية ووضع الدستور الإسلامي المعاصر، أي بلغة العصر ومفاهيمه

ومصطلحاته، ولا يصح أن يقال: إن هذه المحاولات تأويلات عصرية لم يقصدها القرآن الكريم يوم نزوله، لأنها في الحقيقة هي تفسيرات وتأويلات إسلامية عصرية، ولكن الإسلام قصدها عندما جعل العبادة العلمية واجبة ومتواصلة في كل عصر إسلامي قائم وقادم.

فالقرآن الكريم يتحقق فعلاً هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان إذا استطاع الاجتهاد الإسلامي الجديد أن يكون ناجحاً وناجعاً في معالجة مشاكل العصر الذي يوجد فيه، فالإسلام نظم كافة الحقوق والواجبات الإنسانية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية كما بينا ذلك في أنواع الإيمان الأساسية السبعة، وكذلك منع الظلم ومحاربة الفساد والإفساد والمفسدين في الأرض، كما بينا ذلك في أوجه الكفر السبعة، لأن إقامة أنواع الإيمان تبني المجتمع الإسلامي القويم نموذجاً للمجتمع الإنساني كله، والتحذير من أوجه الكفر المذكورة تقي المجتمع الإسلامي من مظالم الأشرار والمفسدين وأئمة الكفر في الأرض.

إن استقراء النصوص يتطلب متابعة نزول الآيات السياسية في المرحلة المكية والمرحلة اليثربية والمرحلة المدنية، ومن المعلوم بداية أن نزول القرآن الكريم كان في مكة التي كانت تحت سلطة قبيلة قريش العربية، لذا فإن مناسبات نزول القرآن الكريم كانت شديدة الصلة بالمناسبات التاريخية لأوضاع العرب عموماً وقريش بصفة خاصة في أوضاعها التعبدية و الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وجاءت آيات القرآن الكريم لتكوين أمة جديدة تقوم على المعرفة والعلم والقانون، في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع الجديد، وبيان الطرق الكفيلة في كيفية إدارة شؤونه إذا تكفلت المعرفة والعلم والقانون بنسخ قيم القبيلة الجاهلية وسلطتها.

لقد ركز الإسلام في البداية على بناء شخصية المسلم المؤمن بوصفِهِ أحد أركان المجتمع الإنساني والإسلامي الجديد، وجعل الله تبارك وتعالى التقاء المؤمنين على الإيمان بتكوين جماعة «الذين آمنوا»، الذين توجه إليهم نداء يا أيها الذي آمنوا، وهم كافة المؤمنين المصدقين بالحق والمطمئنين به، وحضهم على العمل الجماعي على أساس التعاون،

وعلى أساس الشورى التي تصنع المجتمع السياسي برؤية جماعية تنفع المصالح العامة، وإلى تحويل المجتمع البشري البسيط إلى مجتمع سياسي تقوده قيادة واعية، على أساس وتأسيس في الولادة الطبيعية للدولة بوجود الذين آمنوا علماً والعمل الجماعي فعلاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

وفي رحلة التحول من الدعوة الفردية المكية إلى المرحلة السياسية المدنية، توجهت الدعوة إلى المرحلة الوسيطة أو المرحلة الوسطية وهي المرحلة اليثربية التي استغرقت ثلاث سنوات، بين عشر سنوات مكية أولية وعشر سنوات أخرى مدنية ثانوية، هذه المرحلة اليثربية ركزت على مقومات المجتمع المدني علمياً واجتماعياً قبل أن يبنى سياسياً، أي في إيجاد الأبعاد والعلاقات الطردية بين الوجود المادي المتمثل في الأرض والسكان والوجود المعنوي المتمثل في العلم والإيمان، عن طريق زيادة إيمان الأفراد بالإيمان الفكري والإيمان التعبدي والإيمان الأخلاقي، ثم زيادته بالإيمان الاجتماعي الذي يجعل كل مؤمن به مشاركاً لإخوانه المؤمنين بكافة الحقوق والواجبات.

كما تم التأكيد على التوازن الاجتماعي ومن بعده التوازن السياسي في إقامة الدولة الإسلامية على عقود اجتماعية قبل العقود السياسية، فقد كانت بيعة العقبة الأولى بيعة اجتماعية والتي وصفتها كتب السيرة النبوية ببيعة النساء، بينما كانت بيعة العقبة الثانية بيعة سياسية بالنظر إلى بنودها كما روتها كتب الحديث الصحيحة والسنن والمسانيد والسيرة النبوية، وهي:

أولاً: بيعة العقبة الأولى ـ البيعة الاجتماعية ـ

روى الإمام البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: إنَّ رسول الله ﷺ قال، وحوله عصابة من أصحابه:

(تعالوا بايعوني على أن:

1 ـ لا تشركوا بالله شيئاً.

2 ـ ولا تسرقوا.

3 ـ ولا تزنوا.

4ـ ولا تقتلوا أولادكم.

5ـ ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم.

6ـ ولا تعصوا في معروف.

فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه). فبايعناه على ذلك[1].

هذه شروط البيعة الاجتماعية التي عرفت في السيرة النبوية ببيعة النساء، وكلها تركز على بناء المجتمع الإسلامي النظيف، أساسها رفض الكفر الفكري الذي عبر عنه: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ورفض الكفر الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، بعدم السرقة وعدم الزنى وعدم القتل وعدم البهتان وعدم المعصية في معروف، و«المعروف: اسم جامع لمكارم الأخلاق، وما عرف حسنه ولم تنكره القلوب، وهذا معنى يعم الرجال والنساء، وذكر ابن إسحاق في رواية يونس فيما أخذه عليه السلام عليهن: أن قال: ولا تغششن أزواجكن»[2]، ودخول أداة النفي على النواهي السابقة تفيد أن تجنب هذه النواهي هو ضمانة قيام المجتمع الإسلامي المنشود في المدينة، وهي ضمانة قيام كل مجتمع إنساني على السلام والأمان والنظافة والطهارة، وهي تؤكد أن الحكمة أساس البناء السليم.

ثانياً: بيعة العقبة الثانية ـ البيعة السياسية ـ

«قال جابر: قلنا يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال:

1ـ على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم (3892)، 4/ 303. وكتاب السيرة النبوية لابن هشام 1/ 433. وكتاب الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، للسهيلي، 2/ 251. وكتاب: الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص 161. ومختصر زاد المعاد، للإمام محمد بن عبد الوهاب، 132.

(2) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للإمام أبي القاسم عبد الرحمن السهيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ ـ 1997م، 2/ 251.

2 ـ وعلى النفقة في العسر واليسر.

3 ـ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

4 ـ وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

5 ـ وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم.

6 ـ وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة» [1].

فهذه البيعة عقد سياسي في تكوين الدولة الجديدة، وقد أقام الإسلام العقد السياسي على الإيمان السياسي الذي هو جزء من الإيمان الكلي وأعلى مراتبه كما سبق بيانه، فالعقد السياسي عقد مبدئي يؤمن به كل مشارك به بإرادته واختياره وبكافة أحكامه والتزاماته، ذلك أن المؤمن به ليس مواطناً كامل المواطنة فقط وإنما كامل الإيمان بالله تبارك وتعالى وبما أنزله من أحكام سياسية منظمة لحياة المسلمين العامة، وزيادة إيمانه وكماله هو بقدر تصديقه وإخلاصه وصلاح عمله أيضاً.

لقد أطلق المسلمون على البيعة السياسية وصف بيعة الحرب لأن من شروطها القتال في سبيل الله بالأنفس والأموال بهدف حماية هذه الدولة الجديدة والحفاظ عليها، وحماية الرسول عليه الصلاة والسلام من السلب والاعتداء، لقد أقام الإسلام المجتمع على المرجعية القانونية العليا المسماة بالشريعة، وهي التي تضبط حركة الأفراد في حياتهم الخاصة وحقوقهم فيها، وتضبط الحياة العامة وحقوق المسلمين فيها، وتضبط علاقات الدولة الإسلامية بالأمم الأخرى.

وحفاظا على حقوق هذا المجتمع وعقده الاجتماعي فقد شرع الإسلام واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلياً، وللحفاظ على عقده السياسي شرع الإسلام حق حماية النفس بالجهاد الفردي، وحماية المجتمع الإسلامي بالجهاد الاجتماعي ضد

---

(1) انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص 166، وقال: رواه الإمام أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن حيان، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص 155، وروى ابن اسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو «أن لا ننازع الأمر أهله» انظر ابن هشام 1/ 454. ومختصر زاد المعاد، للإمام محمد بن عبد الوهاب، 132.

الفساد والإفساد، وحق حماية الجماعة بيد الأمة الحاكمة عن طريق القتال، إذا وجد من يسعى لمحاربة مجتمع الخير ودولة الخير ودين الخير.

هذه بعض الأركان التي يمكن أن تقوم عليها النظرية السياسية الإسلامية، أما تدوين الدستور فالأمر لا يتوقف على العالم الفرد وإنما على مؤسسة علمية شرعية، تمثل في بداية الأمر قيادات علمية تقوم على مصالح تجمعات المؤمنين والمسلمين حيثما وجدوا على أساس تعدد الاجتهادات الإسلامية، ومن كل المسلمين المؤمنين، «فقد ألقى الإسلام على كواهل هؤلاء السكان المسلمين تبعة حمل نظامه كله، فإنهم هم الذين يسلمون بحقانية هذا النظام، فهو ينفذ فيهم قانونه كله، ويلزمهم الامتثال لجميع أحكامه الدينية والخلقية والمدنية والسياسية، ويفرض عليهم القيام بجميع واجباته وفرائضه، ويطالبهم بكل نوع من التضحية في الدفاع عن دولته، ثم يخولهم وحدهم الحق في أن ينتخبوا أولي الأمر لهذه الدولة ويشتركوا في البرلمان ـ مجلس الشورى ـ المدبر لشؤونها، وأن توسد إليهم مناصبها الرئيسية لتسيير سياسة هذه الدولة الفكرية وفقاً لمبادئها الأساسية»[1].

(1) تدوين الدستور الإسلامي، أبو الأعلى المودودي، ص 64.